

الأعمال الإبداعية

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

علاء الديب

قمر على المستنقع



قمر على المستنقع

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: القرية ١٩٥١

التقنية: ألوان زيتية على سيلوتكس

المقاس: ٧٢ × ٦٠ سم

تحية حليم (١٩١٩ -)

فنانة مصرية ولدت فى دنجلة بالسودان، وهى من القلائل الذين احترفوا الفن منذ الثلاثينات، وقد اختارت موضوعاتها من الريف والحياة المصرية الشعبية، بدأت بالاتجاه التأثرى وانتقلت إلى الأسلوب الفطرى، تغلف البساطة والشاعرية أعمالها، فأمكنها مزج الألوان وتنسيقها على سطح اللوحة بمقدرة وقدرة فائقة،.. درست الفن على يد الفنان السورى يوسف طرابلسى والفنان حامد عبدالله، وقامت بجولة فى أوروبا، واهتمت اهتماماً خاصًا بالفن المصرى القديم والتراث القبطى. وقد مثلت مصر فى عدة معارض دولية، أهمها بينالى ڤينسيا وبينالى سان باولو وبينالى الإسكندرية. وحصلت على جائزة الدولة التشجيعية ١٩٦٩، والتقديرية ١٩٩٥.

محمود الهندى

قمر على المستنقع

علاء الديب



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

قمر على المستنقع

علاء الديب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**

الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصدراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية، وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى، وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى **«مكتبة الأسرة»** .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

هذه الرواية مأخوذة من الأوراق الشخصية للدكتورة «سناء فرج» أستاذة الجامعة السابقة، وطليقة الدكتور «منير فكار» أستاذ اللغة العربية المعار فى جامعات الخليج، وقد سبق للدكتور أن حكى حكايتهما معا تحت عنوان «أطفال بلا دموع» (روايات الهلال العدد ٤٨٧ يوليو ٨٩)





الحمدلله ذهب، أغلق هانى قبطان باب الشقة خلفه، وذهب، أسـرعت إلى غرفـة النوم الكبـيـرة، وأغلقت - أنا الأخـرى - البـاب على نفـسى . وحـدى، أتكلم وحـدى بلا صوت، كأننى أكتب بحبر أبيض على ورق أبيض، صوتى فى أذنى، يصعد إلى عقلى وينزل إلى قلبى .. وهناك يبيت .

أفرح عندما يحيطنى فراغ، كأننى أسبح فى قطيفة ناعمة أو حـرير، سـامـحنى يارب، اغـفـر لى كل هذا البطر



بالنعم التى تكاد تغرقنى، واغفر لى - لو سمحت - عدم قدرتى على احتمال مزيد من هذا العذاب .

ذهب هانى قبطان - الآن - بعد أن أنزلنا أنا وتامر ولمياء وداده نجية فى الشقة المفروشة، وذهب هو إلى فندقه القديم . سناء فرج .. الدكتورة سناء فرج وأولادها، فى شقة مفروشة فاخرة فى مرسى مطروح، أكرر اسمى وأكرر المكان، أريد أن أنسى الكون والمكان، وأريد أن أذكره .

هانى قبطان .. عشيقى، رفيقى، خطيبى، وأنا .. هه، أقترب من الخمسين، يريد فارسى الجميل أن أتزوجه على زوجته، أم هانية وتيسير، يريدنى زوجة ثانية، محظية بيضاء، مخدعا إضافيا، وفراشا «استبن»، عادى، لا شىء جديد، إلى هذا وصلنا .

إجازة صيف باذخة مسروقة، عشرة أيام فى وسطها عيد ميلادى، مناسبة سعيدة لسلخ الشاة بعد ذبحها،

خلاص، خطوة وأصبح فى الخمسين، السادسة والأربعين، البحر أمامى والزبالة خلفى .

شبابيك غرفة النوم الكبيرة تفتح على ظهر المبنى وتطل على مناور عمارات وخرابات وحشية، يتصاعد منها دخان حرائق قمامة . من النافذة الصغيرة أرى وسط الدخان، أطرافا صناعية من الجبس وأكواما من القطن والشاش، بقايا مستشفى ملاصق، تصدر عن الحرائق الصغيرة رائحة فذة .

أغلقت كل نوافذى، أحكمت الستائر، صرت فى عتمة النهار، خلعت كل ملابسى ووقفت عارية أمام المرآة .





مــــازلــــت أحب جسـدى رغم السنين، مازلت أحب جسدى الحر الجميل، فى هذه المرأة خافتة الضياء وجهى ساكن، وجهى حقيقى ثابت، أتعرف على ملامحى، أنفى مازال عريضا، رجوليا بعض الشىء، جبهتى واسعة، أتعرف من جديد على تفاصيل جسدى علنى أجد نفسى، أقترب منها وأبتعد .

حقيقتى تبدو لى دائما غامضة ومستحيلة، تجسيد فاتن

للزمان والمكان، أيام وليال من لحم، بطن وصدر، وعروق زرقاء نافرة هنا .. وهناك .. طاقات نور، وتجاويف ظلام، أطل على جنتى التى تنقلب الى جحيم، راضية عن نفسى، أحب هذا الجسد رغم كل شىء .

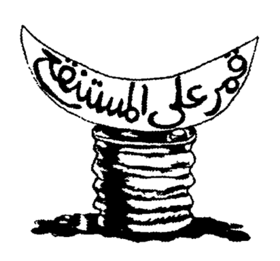
صوت داده نجية ينادينى وأنا عارية أمام المرآة . أقفز بسرعة الى الباب أغلقه بالمفتاح، لا أريد أن يقتحمنى أحد، لا نجية ولا الأولاد .

هى تحب أن ترجع الىَّ فى الصغيرة والكبيرة، رغم أنها تعرف أننى فارغة، لا رأى عندى ولا حكمة، هى تعرف كم أنا مسكينة، عند نجية مرآة ساخرة غير كل المرايا .. لا أشاهد فيها جسدى فقط، ولكنى أشاهد فيها بلا ضوء خراب حياتى، تنعكس فيها علاقاتى الموءودة مع أولادى، هم أولاد معى . أولاد لها، لا أب لهم ولا وطن ولا أرض، أمهم أيضا حاضرة غائبة، أولاد دادة نجية رغم أوجاع الحمل والولادة، رغم أننى أدفع كل تكاليف الحياة.

لا أريد أحــدا الآن، أريد أن أبقى وحــدى مـع جــســدى العـارى، مـع وجـهى الذى أزلت عنه كل الرتوش والماكـيـاج بالكريم الأبيض الذى تسكننى رائحته.

أريدها غـرفة تضـاف إلى عـشرات الغـرف التى تحـركت فيها عـارية حرة. كل هذا الأثاث المزعج، وهذه النظافة النص نص، عشرة أيام سـأعيشـهـا هنا، عادى، مسـتـحيل، تراب معلق فوق الستائر، ورطوبة عفنة رغم رائحة البحر القريب.

غثيان، ورغبة كاذبة فى القىء، تسبق دائماً دخولى إلى الذاكـرة، هلع، سـخـونـة فى بطنى، فى أسـفل بطنى، هـلع يتصاعد، وطعم حموضة.





عشــرة أيام هنا فى مرسى مطروح، لو أستطيع أن أعيشها وحدى حرة، أحدق فى جسدى، فى نفسى، أسمع صوتى الذى تغير ألف مرة، إيقاعه متغير، مرة يأتى من بعيد ومرة يخمش وجهى، ويصيبنى بالصمم.

صوتى هو ذاكرتى، نبرة بين الحكمة والسخرية، الحمد لله، لا أحمل حقداً ولا مرارة، حدث كل ما حدث ومازلت أنا سناء فرج على قدمى وحيدة عارية على شاطئ جديد.

رغم كل تلك السنوات مازلت أحمل فرحا وخوفا غامضا من اقتراب عيد ميلادى ١٥ أغسطس.. فى رأسى شلال طفولتى، وعذاب مراهقتى، ووحدتى وحبى الأبدى الذى ضاع منى قبل أن أمسكه.

عشرة أيام هنا، مع هذا الرجل الذى يريدنى ولا أريده، يقول يحبنى ولا أقدر أن أصدقه، صرت أعرف وجوه الحب المختلفة ووجوه الكذب، ليس لنا لحظة طازجة بكر، أين أذهب من ذكريات الماضى.. ومطبات الحاضر ومخاوف المستقبل، المستقبل! من هذه الجميلة المغرورة التى تتحدث عن المستقبل؟

هانى قبطان يريدنى زوجة ثانية له، هذا هو الفتات الذى بقى لى. ليلة فى فراشى، وليلة عندها، بيننا أكاذيب صادقة، وصدق كاذب، أولادى وأولاد آخرون له ارتبك العالم كله. لم يبق بيننا سوى مقاعد خالية، وشقق جديدة، وصالات

استقبال، أنوار مضاءة فى غرف خالية، أنواع جديدة من الشراب، والطعام والثياب، حطام مشاعر وحياة بلا أحلام.

امرأة وحيدة أمام العالم كله، فى السابعة والأربعين، عادتى الشهرية وجنسى وجنونى، هلع يظهر ويسيطر ويختفى، يمكن أن ألقى بوجودى كله فى سلة المهملات، لولا ذلك الصوت الذى يتردد فى عقلى وتكاد تنطقه شفتاى أعيد شريطا بنفس السرعة أو أتركه يجرى بسرعة مختلفة، صارت هذه لعبتى المفضلة.. عادى عادى وأحيانا مستحيل.

من أصابع زوجى منير فكار عرفت أنه دخل منطقة الجنون، أصابعه التى تمتد نحوى، يمسكنى بها، يقبض على لحمى، فى أى جزء من جسدى، عنف أخرس يتركنى - فقط - عندما أصرخ، أرى رغم الظلام - فى

عـيـونـه بريقـا وكـان انتـصـارى العظيـم أننى حـصلت على الطلاق.





عـــدت أتأكد أن نوافذ الغرفة مغلقة وعاد الهلع يذرع بطنى وصدرى، ألمح شبح جسدى العارى فى المرأة أحسبه شخصا آخر، أدخل إلى السرير ثم أقوم بلا سبب

فى داخلى موات، وكسل، اعتراض ورفض، غباء وحمق، لكننى أقابل الناس بوجه آخر، نشاط دائم شديد يفزعنى نشاطى أحيانا وأشعر أنى على وشك الجنون.

تعلمت أن أضحك من حنجرتى، من أحبالى الصوتية



بصوت عال، أبتسم من عضلات وجهى، أترك وجهى يتحرك، أدق الأرض بكعب حذائى وقلبى ثقيل.

لا أريد أن يعرف أحد فشلى وضعفى ووحدتى الحارقة، لا أحد يستحق أن يعرف، بعد الطلاق عزمت أن أصنع طريقا، أن أدعى نجاحا، نجاحا واقعيا، ماديا كاذبا.

لم يعد لى أحد أستطيع أن أعرى أمامه فشلى أو حاجتى.. أو حتى وجودى البسيط.

سترت عرى جسدى وحاولت أن أنام .. وعيونى ساخنة مفتوحة، فى النوم قد تنسكب الدموع.





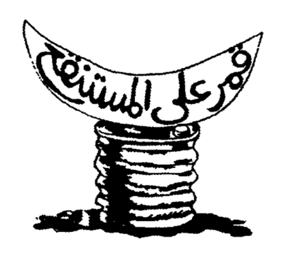
لـــو أغلقت عينى، أرى أشياء غريبة، أشكالا هندسية، دوائر ومربعات تتصارع وتقتحم جسدى، تدرو حول رأسى، أدخل فى خيوط كأنها خيوط فنجان القهوة الذى ظلت نجية تقرأ لى فيه سنوات، كسرت فناجين القهوة، وتوقفت عن شربها بأمر الطبيب.

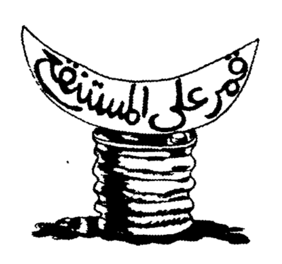
خطوط فنجان القهوة تسكن تحت جفونى كلما أغلقتها للنوم، تأخذنى فى دروب ومسالك ثم تتركنى عارية فى بقعة

مضيئة كأنها قلب المسرح، هلعى سقوط مفاجئ أو عرى مفاجئ وسط الزحام، سنوات وهذه اللحظات تفاجئنى فأقوم مفزوعة، وتستحيل العودة إلى النوم بدون الحبة المهدئة.

الان أنا أحسن كثيرا منذ أن دخل هانى إلى حياتى، حبتى المهدئة، يعطينى كل شىء ما عدا حقيقة نفسه، ربما هو هكذا بلا حقيقة، فارغ مثلى، قشرة لامعة، ونقود كثيرة، وجهه أملس رطب، نشاطه الجنسى يثيرنى، لا يشبع، يريدنى فى أوقات غريبة، وإذا استحال ذلك يتحول إلى طفل حرون غاضب، تعلمت أن أتعامل مع هذه اللحظات، أن أفتح طاقة يخرج منها بخار صدره فيتبعنى طفلا مطيعا هادئا، فى تلك اللحظات فقط كان يداعب روحى ما يشبه الحب له، وعندما يغادرنى ذاهبا إلى زوجته كنت أكره نفسى أكثر من كراهيتى له، أكره قامته الرفيعة الطويلة القابلة للكسر، وظهره المنحنى ورائحة العطر الرجالى التى يدارى بها

اللقاء، يعود بعد يوم أو أيام تظهر من جديد ابتسامته على وجهه الأملس والرطب يحاصرنى بثرثرته ومشاريعه وسهراته وخروجاته، ويهمس عن ليال جنسية مجنونة فأسلم له وقتى بلا شعور.





النوم بحرى الخاص، واحتى الدافئة الظليلة، نادرا ما أنام وإذا ما نمت أستيقظ رائقة متوردة سعيدة، كأننى اغتسلت فى حليب وعسل، تعود لى بشاشة روحى، كأن نسائم صيف لامست وجهى وصدرى وأعادتنى صبية واثقة محبة محبوبة بلا حدود.

تحملنى ساعات النوم إلى حبيبى، إلى عزيز شفيق، غرامى، ساكن جسدى، كأننى خلقت له، فى عالم خلق لنا

نحن فقط، رغم الأيام والسنين لم تبهت ذكراه أبدا ، أتحدث عن عزيز شفيق وإليه، بصوت خاص قديم، لم أعد أستطيعه، صوت لم أعد أجده، أتحدث بلا كلمات فقد كان يفهم عنى كل شىء، معه لم أكن فى حاجة إلى كلمات، كل الكلمات تولد عنده، فى لحظات الحب كان يغرقنى فى الكلمات، أمد رقبتى إليه كى أتنفس وأضع يدى على فمه وشاربه حتى يسكت.

عرفته وأنا فى السنة النهائية فى كلية التجارة، تخرج هو قبلى بسنتين من كلية الفنون، اجتاحنى كعاصفة غير متوقعة من الرقة، والحب، والحرية، والقدرة على الفهم، كان مسيحيا، وحسبنى أنا الأخرى مسيحية، قال لى: ليس فيك شىء غريب عنى، حتى اسمى يمكن أن يكون مسيحيا، كان ينادينى باسمى كاملا.. سناء فرج .. كأنه يعطينى حقى.

فـى بيتـهم يــوم الأحد فقـط نظــام مـخصوص، وكان لبيتنا بقية طقــوس مـن يوم الجمـعة ، صبـاح الأحد يذهب مع أمه إلى الكنيســـة، ويمضـــى معـها أغـــلب اليـــوم، يـــوم الجمعـــة كـــان يمضـــيه معنا - فى البيت - لا يمل الحـديث مع أبى المريض، يداعـبـه ويـلاعـبـه، ويتـحـدث مع أخـــى المهاجـــر الأول أحــاديث لا تنتـهى عن أحـوال البلـد والسياسة، قليـــلا ما أمضـينــا الليل معـا، ليلا أو نـهارا لم يكن فى حياتى شـــىء غيره، زمـــن آخر غيـر هذا الزمـان وبلد آخـر غـيـر هــذا الذى أراه. أعشـقـه، فى الطريق وفى الأركان وفى ضـــوء النهار، فى عربات الترام الخـالية، وفى مـسـارات المتـرو الطويلة كنت ألتـصق به، وحـتى عندمـا اعترض كمســـارى المترو وصاح غـاضـبا على تبادلنا قبلة سريعة، عاد وضحك معنا وهو يدفعنا للنزول كى نواصل ما بدأناه فى الشـارع الهادئ الجمـيل، حدث لى هذا فـعلا فى

زمن سحيق. نائمة على ظهرى أحاول أن أستدعى عطره

المستحيل.





أصـــابــع زوجى منير فكار المجنونة، وعيونه المراقبة، تنتهك جسدى ووجودى، وتمتد إلى ما تحت أظافرى، ماذا يريد منى هذا «الوطواط» الأحمق المخيف، يتقلب فوق طاسة ساخنة، ينقض فوقى، يكرهنى، يريدنى، يريد أن يلعب بى وأن يأكلنى وأن يضعنى فوق الدولاب أيضا، نقود النفط كانت قد بدأت تسرى فى عروقه بدلا من الدم، كل ما بيننا صار جحيما فى جحيم، حتى المدينة التى نعيش فيها ديكور

فيلم لم يبدأ تصويره بعد، أنفاس البشر عندما يظهرون - إذا ظهروا- غليظة وعدائية، وكل البضائع فقدت ما كان لها من بريق، شرنقتى التى أغزلها وحدى تسحق أمام عينى وهى لا تزال لينة، يدوسها بأقدامه العارية الغليظة، أو بضحكاته التى تسخر منى، ودائما.. أصابعه المجنونة الخرساء، أغلق عينىّ وأسلم روحى لظلام فى قلب ظلام.

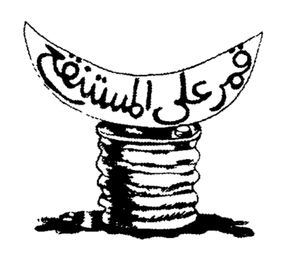
ماذا فعلت لكى يسلمنى قدرى، وبلدى، وأهلى لهذا المصير؟ لماذا تخلى عنى الجميع وتركونى مع كلب الفلوس هذا المسعور.. حولى - أيضا- أولادى، لمياء وتامر، أمد يدى فلا أمسكهم! أراهم، يسأل قلبى: من هؤلاء؟ ملامحهم متناثرة حولى، أجمعها ودائما تضيع منى، أسقط فى غثيان وشعور قاتل بالذنب.

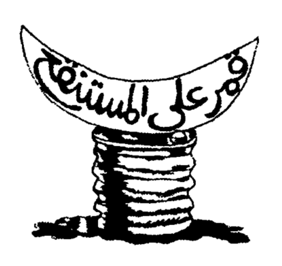
قررت بينى وبين نفسى، بعيدا عنه أن أنزل مصر إجازة عشرة أيام، وأخذت موافقة رئيسى فى الجامعة، وانتهى الأمر، عندما شعر وتأكد ضرب باب الشقة بقدمه وقال: وحدك كده يا مجنونة.. بلا كلام ولا سلام، كأنك سايبة لا جوز ولا عيال.. اخص عليكى وعلى تربيتك.

ارتفع كل شىء وانخفض عشرات المرات، قلبى وجسدى وشعرى فى يديه، والأكواب والأطباق، وأجهزة الكهرباء، والأولاد فى الأركان، بأظافرى، مزقت وجهه، وكل ثيابى، وأمضيت عشرة أيام فى العناية المركزة.

نجية وتامر فى الصالة الآن فى عراك صاخب، صوته يزعجنى، يذكرنى بصوت أبيه، آثار أصابعه خالدة كأنها حروق فى قلبى وكبدى ومصرانى الغليظ، تامر يندفع إلى باب حجرتى ونجية تمنعه عنى وتقول: خلاص .. خلاص ماما نامت.

بينى وبين هذه المرأة علاقة غريبة، أعيش فى ظلها وأحتمى فى وجودها عند اللزوم.





نعـــم علمنى حـبـيـبى وروحى عـزيز شـفـيق فى أول الدنيـا، علمنى فى الحب مـلامسـة العـالم برفق، جسـدى، جـسـده، والأشـيـاء ، حـتى أوراق الشـجـر، والظلط اللامع المستدير.

آثار الملامسة فى روحى مازالت، كمال لا يتم وشعور لا يكتمل، صدرى الناعم وجسدك الذى لا يلين، بينهما روحى لا تهدأ ولا تستقر، أعطيك..أم آخذ منك ؟! يا حيرتى، يا حبى، يا سماء ما بعدها سماء، أنت لا تغيب، أفق الحيرة والشرود، كأنك نداء دائم للحب أو للصلاة.

كيف كان وجهك يملأ كفى، وأنا أشرب منك كلمات نشيد الإنشاد، تقرأ لى، كلمات كثيرة تحمل رائحتك.

يومها كنت شاحبا يسكن عينيك خوف غريب، قتلتنى سيرا على الأقدام، كنت صامتا، حاضرا كنار فى الأحشاء، أقبض على يدك فجأة لكى أتأكد أنك موجود وأنك لم تذهب بعد، حكم الإعدام ما زال معلقا لم يصدر بعد.

إلى متى سأظل أذكر هذا الوجه؟ أرعاه وأدلل ذكراه، وأستدعى لفتاته وملامحه، فى المطعم القديم، وأنت تلعب بلباب الخبز كطفل عنيد يستدعى العقاب قلت: مستحيل، أنا أموت هنا ، كلنا نموت جماعة، مجانا، بلا ثمن ولا قضية، قلت إننى يمامة كاملة لا تهاجر، وإننى قررت البقاء هنا وحدى لأننى أقوى منك، أنا أقوى منك! للكذب، يا حبيبى، ألف وجه وألف سلاح، تركتنى لكى أقابل كل وجوه الكذب البشعة وأتلقى فى جسدى كل الطعنات.

لكل شىء نهاية، وكان لابد لهذا اليوم الكئيب أن ينتهى

نهاية كئيبة، تركنى تحت بيت أبى فى مصر الجديدة، صعدت الدرجات أسحب جثتى، حيث أبى العجوز المقعد، تتحرك فيه • فقط- عيونه المؤنبة اللوامة، تحيطه نباتات الظل الكثيرة التى أكرهها، لو أصب عليها مبيدا فأجدها فى الصباح ميتة، ماتت أمى وأنت يا أبى لم ترعها واعتنيت - فقط - بنباتاتك البذيئة.

عندما ألقيت بنفسى على فراشى كنت كمن سقط على «خص» مصنوع من أعواد الذرة الجافة .. وحدى جريحة على الأرض أنادى ولايسمعنى أحد.





أنـــــا نائمة وقلبى مستيقظ، الخروج من النوم إلى اليقظة أصبح الآن عسيرا، يستغرق وقتا طويلا ويقتضى تحايلا بارعا وملاعبة طويلة، أتحسس بيدى عمرى الذى أراه فى رقبتى وصدرى، وأعود لكى أتعامل مع كل تلك الأثقال المرة التى تصعد إلى بطنى وأراها تسرى مع الدم.

أصبح النوم مثل الإغماء، مخاطبة مجهدة لشخص غير

مـوجـود أو سـقـوط فى بئـر بلا قـرار، ألعن الـنوم واليقظـة ويوم ولدتنى أمى، وحيدة حتى النخاع، وضائقة بكل شىء.

فى فراغ سريرى الخالى، أتأكد أننى مت ورجعت إلى الدنيا مرة ومرات، ليس بعثا جديدا، لكن من هناك ردنى إلى الدنيا، وجدت طريقا مسدودا فرجعت إلى ضيقى وإحباطى وكراكيبى المحطمة، عادى .. مستحيل ذلك التوقيت الدقيق الذى تقتحم فيه دادة نجية مقبرتى المطرزة ، جن أو عفريت، وأحيانا ماء بارد أرطب به جروحى، أحيانا أتصور أنها تسمع كلامى الداخلى وأنا نائمة.

الآن أصبحت نجية - صديقتى - تعرف كيف تتقدم وكيف تتأخر، كيف تظهر فى يومى وكيف تختفى، أحسدها على وجودها المكتمل الذى رضى بها ورضيت به، يدها على رقبتى وأكتافى توقظنى فى حنان حقيقى صامت، أفتح

عيونى على عيونها، تمسح جسدى فى محبة، ورائحة اشتهاء، أدير لها ظهرى، فتضغط عليه فى حسم وقوة :

- قومى .. قومى الباشا وصل.

أسمع صوت هانى قبطان عاليا فى الصالة، يمرح مرحا صاخبا مفتعلا مع لمياء وتامر، أشد جسدى فى السرير استعدادا للقيام، أقول : أمامى مساء مشحون، وليلة صاخبة.





خـــرجـــت إلى صـالة شـقـتنا المفـروشـة، وأنا أرتدى «روب» أزرق فاخرا اشتراه لى هانى، الأثاث كما توقعته - فقط أكثر قذارة، نظيف على السطح فقط يحمل آثار ورائحة نوع مـعـين من الناس كـأنهم مـازالوا يسكنون مـعنا فى الشـقة، يحدقون فينا من المرايا والأركان، آثارهم مـازالت على مساند المقاعد .

هانى - أيضا - قائم كما توقعته - فقط أكثر إشراقا



وصخبا، يرتدى قميصا ملونا - أنا التى اخترته مفتوحا حتى قرب البطن، شعر صدره الناحل يثير الاشمئزاز، يحاول أن يشترى المرح من لمياء وتامر، كأنه ينفخ فى رماد، ينظران له فى ريبة، وتخوف، أما «نجية» فتتحرك خلالنا جميعا فى مهارة، علب «البيتسا» وزجاجات «الكولا» متناثرة فى الشقة تزيد من فوضاها الغريبة.

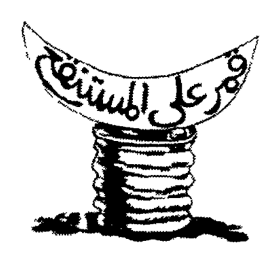
بحثت لنفسى عن مقعد، ألقيت بجسدى المتثاقل عليه، أراقبهم وكأننى أدور فى فلك آخر غيرهم.

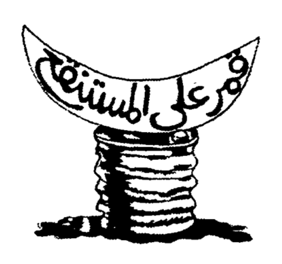
من بعيد أرى زرقة بحر مطروح الخاصة تسرق عينى وروحى كأنها ماض قديم لن ألمسه فأتمنى أن أكون فى أية بقعة مع البحر وحيدة بعيدا عن هنا.

أصبحت الآن أدخن كثيرا، خاصة عندما أكون جائعة، كأننى أنتقم من نفسى. وبالذات فى وجود هانى الذى لا يكف عن محاولة منعى عن التدخين، وضعت علبة سجائرى،

و«الولاعة» و«الطقطوقة» الصغيرة التى أصحبها معى فى كل مكان إلى جوارى، ورحت أراقبهم من خلال الدخان، أتظاهر باستقرار خارجى زائف وقوة شكلية، تخفيان ما أشعر به من فراغ وغباء وعدم قدرة على ربط الأشياء فى سياق واحد، كأننى أعيش أجزاء أو شظايا من عالم قد انفجر.

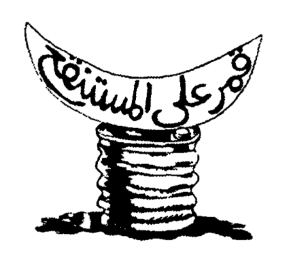
كهلة أنا، مجهدة، كبيرة، تغير العالم حولى جدا، كما تغير إدراكى له، الثابت الوحيد - الآن - هو البحر حاجتى له، واستحالة أن أدركه.





كنت ذات ضفيرتين طويلتين مشدوتين خلف ظهرى، فى عنف واتقان تسرحهما لى « جازية» خادمتنا الفلاحة العفية التى تضمنى إليها فى قوة حتى أضحك وأبكى، وينفطر الدمع من عينى، أعود أشاكسها حتى تمسك بى من جديد ويمتلئ أنفى براحتها النفاذة التى لا أعرف من أين تنبعث، أدفن رأسى فى صدرها الكبير المربوط بقطع غريبة قوية من الأقمشة التى تصنع لها أمى منها «سوتيان» غريبا

تسميه هى «العنترى» أضع يدى الصغيرة عندها فتتأوه، ونتمرغ معا على الأرض حتى يمتلئ أنفى برائحتها التى مازالت تبعث فى رأسى دوارا.





دخنت ثلاث سجائر، وضقت بسلوك تامر العنيف مع أخته، ومع هانى كأنه ينتقم من كل شىء: الأثاث، والطعام، والشراب، والناس، نظرات هانى تستعطفنى لكى أضع نهاية للحظات بلا معنى، يرجونى أن نقوم حتى ندرك غروب الشمس على الشاطئ، أتحرك - أنا - فى بطء متعمد وعناد.

أعدت لى نجية الحمام، هناك استمتعت بالماء الوفير،

واستمتعت - من جديد- بالباب المغلق بينى وبينهم، عدت إلى الغرفة لكى أختار ملابسى، «نجية» معى تغرق جسدى بماء «الكولونيا» الخفيف الذى أحبه، تتملق جسدى الوافر بعينيها ويديها، وتؤكد لى أن صبغة الشعر أحسن هذه المرة، فلا أثر لتلك الألوان الغريبة عند الجذور.

من خلال الباب المغلق كنت أضع - أنا وهانى - برامج متنوعة لنا وللأولاد، محاولين فى خبث مكشوف أن نضمن أوقاتا للخلوات والنزهات المنفردة، لم يكن هناك دا ع للخبث فقد كان الأولاد مرحبين بهذا كأنهم يريدون التخلص منى ومن هانى، «نجية» كانت تشعر بهم، هم يريدون فقط حسابا مفتوحا، ووقتا مفتوحا - قدر الإمكان - وألا يحسابهم أحد، وهذا - فى الحقيقة - كل ما أستطيع أن أقدمه لهم، «نجية» وحدها هى التى تبقى لنا مظهر الأسرة التى نحاول أن نكون.

أعرف أن البنطلون الضيق والبلوزة الواسعة يثيران هانى ويجعلانه يدخل معى فى صراع بعينيه النهمتين، يصغرنى هو بعامين، ما زال يحاول أن يثبت - دائما - فحولته، وبأنه قادر على الجنس فى أى وقت.. يبدو لى مضحكا عندما يتقافز محاولا إثارتى وإثارة نفسه .

اختفت «نجية» للحظات وعادت، وهى تحمل لى شراب اللوز بعد أن أضافت إليه قطرات من زيت خاص حضره لنا عطار قديم فى الحسين ..كانت تبتسم لى مشجعة كأننى أخطو إلى المقصلة.





انـــدلـــع في الخارج احتفال الغروب في الأرض والسماء، امتلأت الشوارع الجانبية وشارع الكورنيش الرئيسي بالدرجات الملونة، وعربات مرسي مطروح التي تجرها حمير متعبة وأولاد أشقياء. وعلى الأرصفة زحام من الأولاد والبنات صخبهم له وزن وثقل. اخترقنا الشارع لكي نصل إلى السيارة الفاخرة التي استأجرها هاني فور وصوله. كان يحب أن يبهرني بمثل هذه المفاجآت، التي أستقبلها - أنا - بلا مبالاة وتجاهل يغيظ، كثيرا ما نلعب



معا هذه الألاعيب، وكأنها هى كل العلاقة التى تربطنا.

كانت السيارة حقا جميلة ومريحة، وسرعان ما أصبحنا خارج المدينة ودخلنا إلى سكون بدأ يحتوينى. كان هو - على ما يبدو - يستعد لصياغة جديدة لمعانيه المكررة. عن الحب، وإحساسه بأنه يستطيع معى أن يبدأ حياة جديدة، وأنه قادر على أن يمسح عن قلبى وروحى ما ران عليهما من أثقال. وهو لا يشكو من زوجته، فهى - للأسف طيبة ووفية، واحتملت معه الكثير. كما أنها أم ممتازة. لكن بينهما .. لم يعد هناك شىء "أنا لا أقصد السرير .. ولكن كل شئ .. اللحظات بيننا صارت فارغة لا شئ يحركنى .. ليس هناك أفق للحياة».

ثم يتبع ذلك بوصلة - لا أستطيع أن أقاومها - فى

مدحى، ووصف مفاتنى: جسدى وروحى، وما يقدمه وجودى له من سعادة وحرية وأمل فى الحياة.

يطرب قلبى، ولكننى لا أصدقه.





بلغـــنى خبر وفاة حبيبى عزيز فى باريس بالسرطان، وأنا فى فترة النقاهة الصعبة، بعد حصولى على الطلاق من منير فكار، أمضيت أياما رهيبة، ظلت لحظاتى معه تطاردنى، لم أكن أقاومها كنت أستلقى ساكنة وأستقبل ذكراها فى كل جسدى، وروحى، أعيشه مرة أخرى، وأنا مغمضة العينين أو محدقة لا أرى ، أتذكر أحاديثى معه، وأتلفت حولى، وأنا أسمع نبرة صوته، أكاد أشعر بكلماتى تخرج منى من جديد.

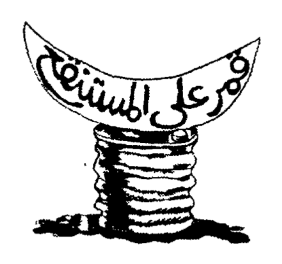


كل شيء معك له طعم ومعنى، حتى العمال الذين يحفرون الشارع، حتى وابور الظلط ومقابر المجاورين، أنت لي محور العالم، أقصد - بالضبط - محوره، حولك تتجمع الأشياء وتدور. تحضير طبق الفول لك في الأتيليه القديم، وتسخين العيش على وابور الجاز تمسك يدي وتعلمني أن أفعل ذلك في اتقان، ابتسامة عينيك التي تسحر قلبي، تأخذني دون أن تمد يدك، فقدتك، تركتني وهاجرت لكنني كنت أعرف أنك موجود، أنك تعمل، وترى وتفكر، لا يهم أن أسمع منك أو عنك كنت موجودا في هذا الكون، تتنفس، وتلمس الأشياء بيديك أما موتك، وذلك السرطان الذي افترس كبدك فقد كان بئرا من الظلام والظلم لم أعرف كيف أعيشهما أبدا، من يومها وأنا أشعر أنني جسد فقط، أما روحي فقد أغلقوا عليها في تابوت خشبي وشيعوها إلى حيث رحلت.

أجلسني إلى جواره في السرير - بعد أن أنهكنا الحب -

وأخذ يترجم لى قصيدة عنوانها «ورقة الشجر المجنونة» بحثت عنها فى أوراقى القديمة فلم أجد لها أثرا، كل ما أذكره منها ذلك الحوار المؤلم بين الرياح، وبين ورقة شجر ساقطة: نصف حية، نصف ميتة .





امتد بنا الطريق وكأنه بلا نهاية، لم يكن جمال البحر ولا احتفال السماء بالغروب بقادرين على أن ينتزعانى من الاكتئاب الدورى الذى ينتابنى، فأكاد أشعر بثقل كل شىء على قلبى.

المدن الجديدة التى ندخل إليها ونخرج منها مكررة تذكرنى بمدن الخليج الخالية من الطابع ، ومن الناس، شوارع فاخرة، ومبان فاخرة بلا بشر، كانت أشجار التين

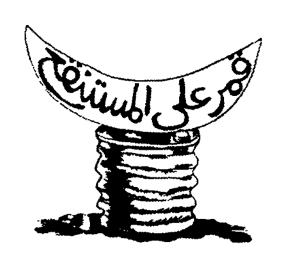
المهيبة الجميلة تكاد تتلاشى لتحل محلها أشجار «الفيكس» الضخمة، أوراقها كأنها مصنوعة من البلاستيك، تنتشر فى كل مكان، ثقيلة الظل وخالية من الروح، تبدو فى الظلام الذى بدأ يزحف وكأنها أشباح لكائنات غريبة لا تمت لنا بصلة، أشجار مكررة أوراقها ثقيلة ضخمة، كأنها حيوانات تفتح فمها لتبتلع الهواء.

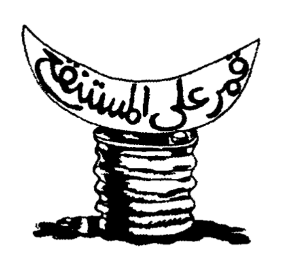
سكت هانى بعد أن تعب من الحديث المنفرد، تعلم أن يتركنى لهذه النوبات، كنت أحب منه هذا وأشكره عليه، لم أدخله إلى تفاصيل حياتى القديمة، وهو لم يبد اهتماما زائدا بها، هو يتمسك بأقواله العامة عن أننا نستطيع أن نبدأ معا حياة جديدة، يكرر لى هذا فى طمع طفولى وسذاجة حتى أكاد أصدقه، فأترك نفسى أشاركه مشاريعه وخططه التى أعرف أنها لن تحدث، لم تكن خبرته لا بالسوق ولا بالنساء تعنى شيئا بالنسبة لى، من البداية قررنا أن

نلعب على المكشوف، فأنا قد دفعت كل فواتيرى، وسددت ديونى وأكثر للحياة وللناس جميعا، لا أخشى شيئا، ولا أريد شيئا، لا أحمل له فى قلبى شرا، ولا أحاول خداعه.. لكننى لا أحمل له شيئا آخر، أعرف قدراته وما يستطيع أن يعطى، ولا أنتظر منه أكثر، سنسير دائما فى خطين متوازيين، ولن نلتقى سوى ذلك اللقاء العابر السريع، أما هو فلم يكن يكف أبدا عن تلك المحاولة الخائبة لكى يعتصر من لحظاتنا معا رحيقا ليس فيها.

لم أكن حتى أريد أن أمتحن امتحانا حقيقيا عروضه المتكررة للزواج، فأنا أعرف أنه سوف يهرب فى النهاية، أو أن الزواج سيكون تجربة أخرى بذيئة أضيفها إلى رصيدى من خيبات الأمل، كنت راضية بوحدتى وسط هذا الزحام، بل وممتلئة أحيانا باستقلالى الصلب الذى حصلت عليه بالدم والجروح.

وقف هانى عند فندق فاخر جديد على الطريق، عاد يقول إنه لن يسمح بأن تضيع ليلتنا الأولى هنا فى هذا المزاج القاتم..«وكل شىء حولنا يدعو للفرح والاحتفال» كانت حديقة الفندق جديدة هى الأخرى منسقة بالمسطرة، البار الذى قادنى إليه كان باردا، خاليا تماما، أما المشروب الذى طلبته، فقد كان لاسعا.. وكنت أحبه.





اتخـــذت قـرارى ليـلا، وفى الصـبـاح كنت صلبـة ومـصـممـة لم يكن قد مضى سوى ستة شـهور على حصولى على الطـلاق من منيـر فكار، كـأننى ولدت من جـديد، رغم الإجـهـاد والمتـاعب المادية الجديدة، التى واجـهـتـهـا، بـعد أن أخـذ كل شـىء تقـريبـا، كل شىء إلا أننى كنت أتنفس ليـلا، وفى الصباح رجعت أقرأ، وأسمع الموسيقى التى كان يسخر منها دائما.



كان قرارى أن أستقيل من الجامعة، أن أقطع كل الخيوط التى تربطنى بهذا الماضى المرعب الذى أمضيته معه، ومع أصدقائه والدائرة التى كانت تحيط بنا، كانوا قد تحولوا جميعا، بعد الفضيحة، وقسم البوليس، وما نشرته الجرائد إلى عـيـون شـامـتـة، وأيد تمتـد لكى تنبش فى أخص خصوصياتى.كنت أشعر بهم يتهامسون حولى فى طنين لا يسكت.. ماذا ترك فيها، وماذا ترك لها، حتى عيون الأساتذة الزملاء تغيرت وهى تصافح وجهى فى الصباح، لم يعرفوا كيف يخفون نظراتهم لى كمطلقة سهلة، كأنهم كانوا يتقلبون معى ليلا فى الفراش.

معى تامر ولمياء، وحساب ضئيل فى البنك، وشقة صغيرة انتزعتها من أنياب الأسد، من هذا الكهف وبتصميم لبوءة جريحة كان علىّ أن أبدأ وحيدة، وكانت خطوتى الأولى أن أنهى من حياتى ذلك الكابوس الذى اسمه حياتى الجامعية،

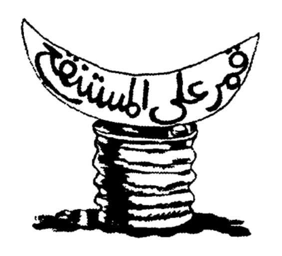
الذين ذهبوا مثلنا في إعارات كانوا قد تحولوا إلى كائنات غريبة «أسماك قرش» مفترسة، لا تعرف زمالة ولا صداقة، علمتهم سنوات الغربة كيف يفترسون لحم إخوانهم حيا، وكيف يصعدون على أكتاف أقرب الناس إليهم، أما من لم يذهبوا فقد خنقهم الفقر والهزال، وأصبحوا يحدقون في الملابس والسيارات التي عاد بها الآخرون في بلاهة وتلمظ، كأن كل شيء في ذلك الكيان الذي كان قد انفجر في لحظة واحدة وتحول إلى أشلاء بلا منطق ولا سياق، بعد أن انتهيت من محنتي مع منير لم يكن من الممكن أن أحتمل هذا المكان للحظة واحدة، انتقل الأساتذة الزملاء - الرجال قبل النساء - من هذه الكلية إلى تلك، حاملين الأخبار والشائعات عن منير وسناء في همس مدو وضحكات يتندر بها الطلبة والفراشون.

لم يسألني عميد الكلية الطيب أسئلة كثيرة،

كاد يضمنى بعينيه، وهو يقبل منى الورقة التى تحمل استقالتى.

وأنا أشق زحام الطلبة بعربتى الصغيرة مسرعة نحو كوبرى الجامعة كنت كأننى أهرب من غابة حمقاء.





مـــن خلال زجاج «البار» كنت أرى البحر، مهيبا ممتدا بلا نهاية فى الظلام، البحر أعظم شىء فى حياتى، مطلق ووحيد،أعشقه، وأحسه يقتحمنى، وأقتحمه فى ندية كاملة مستحيلة، النظر إليه يجعلنى راغبة فى البحث عن مكان جديد، عن نقطة جديدة أبدأ منها، نقطة قريبة لكنها غامضة، تقع هناك فى ذلك المجهول، هناك سأجد ما ضاع منى.

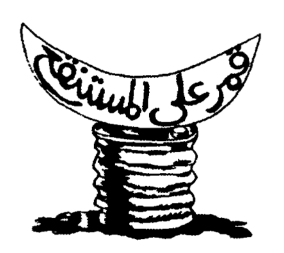
كان هانى - بعد عدد من الكؤوس - قد أخذ راحته، وزال التوتر الذى يصاحب حديثه وابتساماته المغتصبة، عاد شخصا طبيعيا بلا افتعال، مشتاقا فى الحقيقة إلى امرأة حرة تحبه، تقبل عيوبه وضعفه كما تفرح بما يقدمه من إمكانيات مادية واسعة امرأة تقبله كما هو، وترضى غروره.

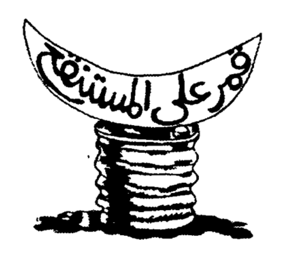
كنت أشعر غالبا أن زوجته تجلده، وأنه يخاف منها، ولكنه يدارى ذلك دائما أمامى، ولا يستطيع الاعتراف به أو الحديث عنه كان يحدثنى عنها دائما فى كلمات وصور مكررة محفوظة، كنت قد التقيت بها عدة مرات فى حفلات وزيارات لبعض الأجانب الذين يتعامل معهم ووجدتها امرأة عادية، جميلة ولكنها مفتعلة بعض الشىء لها أظافر حادة، تحسن إخفاءها تحت ستار من الأدب المصنوع.

عرفت أن المشكلة فى هانى نفسه أنه ليس ذلك الرجل الذى يعطى امرأة مبررا لوجودها فلا تعود تسأل أو تخاف،

أو تفتقد شيئا يطلب الحرية ولايستطيع أن يصنعها أو يهبها، كنت - عادة أقول لنفسى ..إنه رجل من صفحة واحدة، عادى تنزلق معه اللحظات والأيام ، ولم يكن فى حياتى - الآن - ما يمنعنى من أن أمضى معه وكان من حقه، ومن حقى أن نعرف كيف نستمتع معا.

طلب منى أن نمضى الليلة - أو جزءا مها - فى فندقه، وأخذ يؤكد لى كيف أنه أعد كل شىء، وأنه رتب أموره مع الإدارة حتى لا يزعجنا أحد، وأن السهرة فى شرفته ستكون خرافية.





كـــانت أيامى الأولى مع زوجى منير فكار مرعبة، لم نكن أطفالا ، وكان يعرف عن علاقتى الممتدة مع عزيز، وعن هجرته بعد أن كنا على وشك الزواج ، ومع ذلك فقد أصر بشكل غريب على أن يجعل من مسألة أنه ليس الرجل الأول فى حياتى موضوعا تحتيا، موجــودا دائما يرجع إليه ـ غالبا دون تصريح مباشر ـ وأحيانا بأكثر الصور فجاجة وبذاءة.

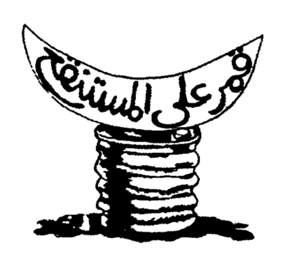
حاولت بكل ما أملك من حيل أن أكسبه، وأن أشعره أنه «رجلى» ، ولكن يبدو أن الأمر لم يكن متعلقا بى أو بجسدى أو تاريخى. الأمر كان متعلقا به هو، وبفهمه لى ولعلاقتى معه، أراد أن يعرف منى تفاصيل التفاصيل، وعندما رفضت، أخذ هو يصنع قصصا فى خياله، ويصدقها، ويحاسبنى عليها.

ظل يفاجئنى فى أصعب اللحظات بقوله: أنت لا تريديننى أنت لا تحبيننى، أنت تفكرين فيه، ساعتها يكون كل جسدى معه.

عرفت على يديه، ومنذ البداية لعنة الجنس الردىء، الجنس الذى يتحول إلى صراع أبكم، وينتهى بإرهاق للجسد وفراغ فى الروح.

وبعد أن دب الحمل للمرة الأولى فى جسدى، وأخذت أشعر بذلك الكمال، والقوة التى بعثها جنين يتحرك شعرت

بأننى استطعت أن أضمد له تلك الجروح الغائرة فى روحه، إلا أنه كان دائما يوقظها، ويعود «ينكش» فيها، حتى اقتنعت أنه يستعذبها، وكأنه حيوان يحب طعم دماء جروحه، فتركته يفعل وأسدلت بينى وبين نفسى ـ على كل هذا الموضوع ـ ستارا سميكا، ويبدو أن هذا زاد من جنونه.





النســـوة الخـارقـات اللاتى نســمع عنهن فى هذه الأيام، تلك التى تقتل زوجها وتمزقه، وتضعه فى أكياس بلاستيك تحت مقاعد القطار، وتلك التى تدفن أولادها تحت فراش عشيقها.

لا أدرى ما الذى دفع بصورهن إلى ذهنى، وأنا جالسة مع هانى قبطان فى ذلك البار الأنيق، أخذت أتحدث معه عن هذه الحوادث باستفاضة، وكان هو مصرا على أن هذه

الأمور كلها ترجع إلى الجنس، إلى ضعف الرجل أو فقره، أو إلى الزحام، وأخذ يردد ما يقوله الأطباء النفسيون فى الصحف.

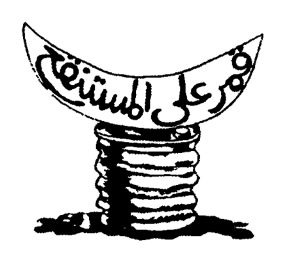
ظلت صورهن تختلط أمامى، مع لحظات من حياتى مع منير، ومع غيره من الرجال الذين عرفتهم بعده، وحتى مع لحظاتى مع هانى ذلك المهذب الوديع الذى يجلس أمامى.

شىء ما تغير فى ذلك الكون الذى أعيشه، شىء عنيف فاجر يتسلق كل ما أملك من حنان وحب وعواطف وإنسانية، يخنق كل شىء ويحوله إلى مطاو وسكاكين.

يبدو أنه الشراب، أو البحر المستحيل الذى غرق بعيدا عنى فى الظلام، أو ذلك المكان الأنيق الخالى من البشر، يبدو أنه كل هذا مع شعور حارق بالوحدة هو

ما دفع دموعا خرساء إلى عينى، مع أننى لم أتعود أن أبكى أمام أحد.

في طريق العودة ـ الممتد الطويل ـ طلبت من هانى أن يتركنى الليلة، فأنا لم أعد صالحة لأى شىء.





استيقظت في سرير مزدوج مزعج على حرارة شمس متسرعة، وأصوات نهار متأخر غريب، أفتقد سريرى القابع فى آخر ـ كهفى ـ شقتى الصغيرة بمدينة نصر، «نجية» حاولت أن تعد لى فراشى، وأن تحيطنى فى محبة بأشيائى التى تعودت عليها، إلا أن غربة السرير والغرفة ظلت صادمة.

لم يكن الأولاد قد استيقظوا بعد، تصلنى حركة «نجية»

فى الصالة والمطبخ وأنا أفيق على وجودها الذى تعودت عليه.

لابد أننى بكيت كثيرا قبل أن أنام، فقد كانت الأثقال التى تعودتها فوق قلبى قد خفت أو غسلت بماء وفير، حمدت الله لأننى لم أدخل ليلة أمس إلى ليل «هانى» أو فراشه، فقد أصبحت الآن أحتاج إلى نهار كامل لكى أستجمع نفسى بعد مثل تلك الليالى، نهار كامل على الأقل ، لكى أعيد وضع القاطرة على القضبان، لابد أنه الآن غاضب منى ومجروح، سيظهر هذا اليوم بالتأكيد، سيخترع طريقة ما يعاقبنى بها عقابا خفيفا ويظهر لى كم ضيعت.

فتحت نوافذى، وأنا لا أزال وحدى، لكى أرى شريط البحر المحبوس، والمبانى والأعمدة المربكة، أطل على حديقة المستشفى القريبة الخربة المليئة بنفايات طبية ملقاة بلا

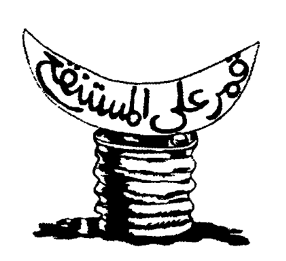
رحمة، حرائق الأمس كانت لا تزال تنفث رائحتها الفذة، أغلقت النافذة ـ إلا قليلا ـ وقررت أن آخذ الأولاد وأهرب إلى بحر، خالٍ بعيد، وشاطئ بكر أبيض ، أعرف أنه مازال موجودا فى أطراف مطروح ، الأولاد يحبونه بعض الوقت، وأنا أحبه إلى الأبد.

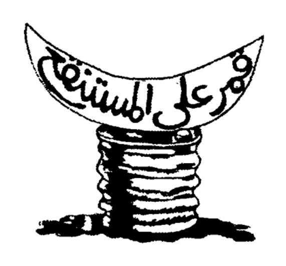
فى جسدى وروحى هذا الصباح شوق لبهجة قديمة، للشمس على جسدى، وصمت أمام بحر غامر مفتوح ، أسكنه ويسكننى، شوق لوحدة من نوع آخر، غير تلك التى أعانيها وسط الزحام ومع الناس، وحدة خاصة أشعر فيها ـ أحيانا ـ بالشبع والارتواء.

سآخذهم إلى هناك. «نجية» فقط معنا، لنمضى اليوم كله وحدنا، أيام نادرة تحتاج إلى حظ وتوفيق ومزاج رائق، نادرا ما تجتمع، أيام مسروقة، أظل فى مثل تلك الأيام خائفة من أن يحدث شىء.

اليوم لن أخاف، سأضم أولادى إلى روحى، وأقبلهم فى وحدتى وصمتى، سأعود أحملهم جنب قلبى فأنا أحبهم، أحبهم وأخاف عليهم.

فتحت الباب وأخذت أنادى على «نجية» بصوت مبتهج.





بعـــد سنوات خمس أو أكثر من السكن وحيدة فى عمارة جديدة من عمارات مدينة نصر، يصبح المكان مألوفا وخطرا في نفس الوقت، يقـتـرب السكان من بعضـهم، ويتطلعون داخل الشقق، يتلصصون على الداخل والخارج، وحتى على أصوات غرف النوم، امرأة وحيدة «بدون» رجل رسمى، مع أولادها ـ فقط ـ تصبح طعاما شهيا للعيون، وميدانا للاختبارات المتنوعة، والمطامع المفاجئة، خاصة



عندما تكون جافة مع نساء العمارة ، عازفة عن سهرات «القزقزة» والتليفزيون، والنميمة.

لأنني أسكن في الدور الأول فقد دخلت في معارك صغيرة مع البواب وعائلته، استعملت فيها الذكاء والحرص والكرم المحسوب حتى وصلت إلى صيغة مريحة، محتفظة ببعض التقاليد الطبقية القديمة، ومتجنبة ذلك التعدي والاختلاط الفج الحديث الذى يحدث بين البوابين والبهوات، ورفع الكلفة الذى يتبدى فى الخطاب اليومى والجلسات التى تحدث بين الهوانم وزوجة البواب وبناته، فضول النساء الذى يغذيه الغباء والفراغ، وتنقله الشغالات والمكوجية وسماسرة الشقق المفروشة، هى البضاعة التى يتاجر فيها البواب لكى يقيم شبكة من العلاقات والمشاكل تعود عليه دائما بالربح وتأكيد المكانة، حظى كان غريبا ـ فى البداية ـ مع الشغالات اللائي جئن عن طريق السمسار : طامعات فى

وضـعى، وأولادى ، وكونـى عـائدة من الإعـارة، كـان علىَّ أن أمـارس أنواعـا من الصلف والقسـوة جديدة على نفسى، لم أدفع لواحـدة منـهن أجرة الشـهر، بعد أن سـرقت مـا يوازى مـرتب سنة، وسلمت «بغى» أخرى إلى شرطة الآداب بعد أن كادت تلحق بالبيت فضيحـة كبرى، وتكررت المآسى ، حتى فــضلت أن يعــمل عندى رجل، يأتى ليــوم أو يومين فى الأسبوع، كان الاختيار مرهقا، خاصـة مع الأولاد، الذين لم أفلـح فى زرع أى نوع من النظام فى سلوكـهم اليـومى، فى غرفهم وفى استعمالهم للأطباق والأكواب ، وصـالة البيت.

لسـبب مـا تـأخـرت يومـهـا فى الذهاب إلى عملى الجـديد، كنت على باب العمارة حوالى الحادية عشرة صباحا، هناك رأيتـهـا «مـحطوطة» على دكـة البـواب، هـى نفسـهـا «نجـيـة الفنجرى»، كنت قد رأيتـها مرات من قبل، فى المدخل، وأمام العمارة، كان وجهها الأسمر الطيب الذكى وكيانها القديم،

يلفتان نظرى، كانت غريبة على هذا العالم الجديد الذى يطحن الجميع ويصبهم فى قوالب متشابهة، أكثر ما يلفت النظر فيها صوتها المنخفض، وإيقاع حركتها الهادىء الذى يؤكده جسدها «التخين» شبه المستدير، نوبية نظيفة كأنها تربت فى قصر أو فى بلادهم البعيدة، لم يجرحنى أبدا تلصصها على شأن من شئونى أو فضولها، كنت أراها أحيانا تتحدث فى ود مع «لمياء» .

يومها كانت «محطوطة» على دكة البواب، كأنها بنيان منهار، أطلال، تضع بين قدميها كيسا بلاستيكيا أسود كبيرا، وتخفى وجهها الباكى بقماش أسود خفيف.

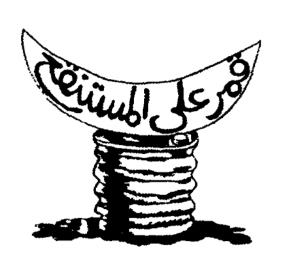
وقفت معها وعرفت الحكاية، كانت تعمل فى «فيلا» من «الفيلات» الفاخرة فى أعلى العمارة، عند ممثلة درجة ثالثة، متزوجة من تاجر قطع غيار يزورها أحيانا، اتهمتها الممثلة بسرقة مجوهرات، وبعد الضرب والإهانة والبوليس ثبت أن

الزوج قد استرد بعض عطاياه، واستغرقت المحنة ثلاثة أيام، أمضتها «نجية» بين القسم والشقة والنيابة، وعندما جاء الزوج وأخرجها مما هى فيه طلب منها العفو وأن تبقى مع زوجته، إلا أن «نجية » رفضت وخرجت وهى لاتعرف لها مكانا، وجلست تغسل صدرها بالبكاء على دكة البواب.

أخذت «نجية» إلى صدرى، إلى بيتى، ومن يومها لم نفترق، وجدتها ، فى مصادفة غريبة استعدت بها كثيرا من حياتى الماضية، من رائحة أسرتى قبل أن يفسد كل شىء، وفى تعامل متحضر غير محسوب ، تقاربنا بلا خبث ولاطمع.

أخلاق الجوارى المنسوجة من الطمع والخبث كانت أبعد ما تكون عن أخلاق «نجية»، لقد خلقت هذه المرأة لكى تعطى.. لى، وللأولاد، للمكان الذى تتحرك فيه، هى لاتعرف - أيضا - صمت الخدم، الذى عرفته عن قرب ، وكرهته ،

الصمت الذى يخفى مؤامرة ، وحسدا، وطمعا، فيما تملك أنت أو تنفق، ذلك الصمت الذى يشعرك دائما بأنك مهدد ومراقب، وان هناك مفاجأة خبيثة فى انتظارك، هذا الصمت كان عند «نجية» رضا وحنانا، مع «نجية» لم أعد أخشى المفاجآت، أسلمت لها أولادى، وأغلب مفاتيحى، وحاولت معها أن أصلح ما أفسده الدهر فى حياتها.. وفى حياتى .





استطعنا أن نصل مبكرين إلى تلك البقعة التى أحبها على الشاطىء الأبيض خارج المدينة، حاول تامر أن يعترض على ذلك المكان المنعزل، ولكننا أغريناه بالسباحة الممتعة، وبأنه يستطيع أن يمضى السهرة فى أكبر «مدينة ملاهى».

حاولت أن أقلل من التدخين، وأن أحافظ على جو البهجة والرحلة، «لمياء» كانت جميلة جدا فى «المايوه» الجديد، أخذت معى كتابى، و «كاسيت» تامر ذا السماعات وثلاثة أشرطة



أحبها «لموازار» و«لبيليوس»، ورتبت مع نجية طعاما وشرابا نظيفا صنعناه في البيت.

راقبت لمياء وجسدها الوردي الرائع، عاد لي نوع فريد من الارتباط بها، وبأيامها وهي تحبو وتتعلم المشي والكلام، وحاولت أن أصرف عيني عما في وجهها وعينيها من مشاكل، ومن إدانة موجهة للعالم ولي شخصيا، حاولت أن أطعمها اليوم مع الشمس والهواء، حنانا غير مشروط ومحبة تتجاهل كل ما حدث في حياتنا معا، كان فيها كثير من براءة أمها القديمة، واندفاعها السهل للفرح بالحياة.. وتامر «رجلي الصغير» ما أجمله اليوم هو الآخر، رغم عفريت المراهقة والغضب الذي يركبه، ورغم جبهة منير فكار المقطبة التي يحملها، وأنفه الأفطس الكبير.

بعدنا كل البعد عن الشواطئ المزدحمة، وأصبحنا ـ تقريبا ـ وحدنا، مع ثلاث أو أربع عائلات متناثرة نكاد لا نسمع لهم صوتا، وعلى الرغم من المدينة الجديدة التي

تقيمها إحدى النقابات لأعضائها، والتى توقف ـ والحمد لله ـ بناؤها ، لفساد مالى ما، قرأت عنه ولم أعد أذكره، على الرغم من المبانى القبيحة نصف المنتهية التى تناثرت حولها الأحجار والأخشاب، إلا أن المكان احتفظ بخصوصية استعصت على «البهدلة» والانتهاك، بقعة خاصة، أملكها، وأحظى فيها ببحرى الكبير الذى أقتحمه ويقتحمنى، أعرف هنا الآن جيدا ماذا يمكن أن يعطى المكان للإنسان،، وماذا يمكن أن يلقى على صدره وروحه وعينيه.

أدرت ظهرى لكل شئ، وتركت عيون «نجية» الصافية الواسعة الحنون ترعى «تامر» و «لمياء» فى استقرار ومحبة لا أعرف من أين أتت بهما، وضعت موسيقى «سبيليوس» فى أذنى ـ هو رجل أحب البحر مثلى، حاول أن يصنع من صوته ونوره وجنونه موسيقى، كان منير فكار يسخر منى ـ دائما ـ عندما أرفع صوت موسيقاه صباحا فى البيت كى

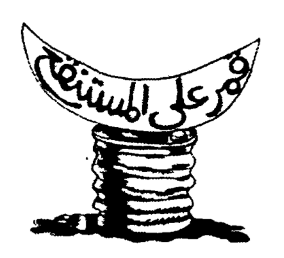
أطرد كآبة غربتى معه فى الخليج، كان يضحك فى فجاجة، ويصرخ، «يادى سى بيليوس.. لدرجة سبيليوس» فأشعر أنه يطعننى بشىء ما فى رقبتى.

أبى المهندس القديم ـ الذى حاول أن يكون فنانا ـ علمنى أن أحب الكلمات، وأن أكره تشوهها وفسادها، وخالى حسين كان يحفظ الشعر، ويجعلنى أردد أبياتا خلفه، عندما رجعنا وعشنا وحدنا أنا والأولاد حاولت أن أنزع من لسانهما ما علق به من ألفاظ خليجية، وألفاظ تعلماها من الشغالات، ولكن سرعان ما حلت محلها ألفاظ العصر الجديد، التى تفسد النطق، والمعنى، والتعبير. كلمات هى والأغانى، وإعلانات التليفزيون مؤامرة على روح «الكلام»، ثم جاءت المدرسة الفرنسية ـ التى لم أجد لهما غيرها ـ لكى تقضى على البقية الباقية من ذلك النبات الحلو الذى كنت أريد أن أراه ينمو على ألسنتهما.

تناولت كتابى الذى أحمله معى منذ شهور «رحلة جبلية...

رحلة صعبة» للشاعرة الفلسطينية «فدوى طوقان» أتعبنى هذا الكتاب جدا، بعت له كل أوقات فراغى، عشقت المرأة، وعشقت تعبيرها عن رحلة حياتها عبر قهرها الشخصى وقهر الوطن، أقرأ كأننى أعيش معها، كم أريد أن أعرف تلك الشاعرة العجوز، وأن أضمها إلى صدرى وأجعلها تهدأ هناك، وتستكين من، فدوى التى عاشت أهوالا، وهى تحمل فى يدها وعينيها عقدا من الياسمين أهداه لها حبيبها القديم التى صادفته فى مطلع الصبا، رحلتى .. ورحلتها .. جبلية.. ورحلتى فى أحشاء الرجال، وغربة الخليج، ومدن الملح والأسمنت، ورائحة العصر، وفساد البشر. أغلقت عينى فى الشمس، قبضت على حفنة من الرمل النظيف الساخن.

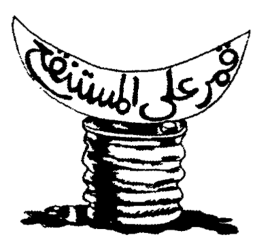




لليـــوم إلى جوار البحر حيل مكررة لا تفقد ـ بالنسبة لى أبدا ـ جمالها ، مفاجآت جميلة متكررة، على الرغم من أننى لم أخلع ملابسى متجاهلة إلحاح «نجية» و«لمياء»، إلا أننى كشفت ساقىّ للبحر، وشعرت بالشمس فى صدرى وجسدى كله.

أغـقلت الكتـاب على قـصـيـدة شـعـر تتكون فى رحم شـاعرتى، ونزعت «سـبيليوس» ، وبحـره عن أذنىّ، ورحت أطارد أوهام المطلق الذى لاح فى حـياتى.، وعذبنى دائما

وراءه، المطلق المجنون المستحيل، الذى شدنى من شعرى الذى كان طويلا وقصصته، سحبنى على وجهى، وعلى ظهرى، بحثا عن الحب المطلق، والجمال المطلق الرجل المطلق الذى لم يكن لى أبدا، أحببت ـ فى الخارج دائما ـ كمالا لا يوصف، وأحببت ـ فى داخلى ـ قدرة خارقة لا توجد أبدا، قدرة على أن أتغير أن أكون ما أريد، أردت ـ دائما ـ أن أهب الاعزاء قلبى، وحياتى، ولكنهم كانوا ـ غالبا ـ يريدون شيئا آخر، كثيرا ما رأيت بذور الآخرين تنمو، أما بذورى أنا التى كنت أزرعها فى ظل روحى فى حدائقى الخلفية فقد ظلت حتى الآن عاقرا، جافة، لا تنمو ولا تخضر حتى بحرى الكبير لا يعرف ولا يرد على سؤالى الجارح : متى مت، متى ماتت روحى، وأمى، ووطنى ، متى رحلت عنى الطهارة والبراءة، ولم يعد لى سوى كهولة ، وعفن زاحف.





قبـــل ٦٧ وصلت أنا وعزيز إلى قمة المأساة، كان هو قد بدأ يغرق فى الشراب، يشرب خمرا فى الصباح ، ويحمل الزجاجة ـ غالبا ـ معه، ترك الرسم، واحترف التصوير الفوتوغرافى لكى يضمن عيشه وعلاج أمه التى لم يكن لها غيره، طرق العمل الثابت تبدو أمامه مسدودة، ما يجده من أعمال رسم أو توضيب فى الجرائد أو المجلات يجلب عليه ـ فقط ـ مشاكل و «خناقات» ، بدأ يفقد حتى

الأصدقاء الذين يتهمونه بأنه أصبح مدمنا ومهملا ومقصرا في حق نفسه، وفي حق القضية ! وهو بدأ يسخر ويلعن كل شيء، وبدأت مرارة غامرة تشكل سحابة يتحرك فيها.

ليلا عندما نلتقى فى الأتيليه القديم الواقع فى أطراف الدقى، والذى أصبح يدفع إيجاره بصعوبة شديدة، كان يفرش الصور الفوتوغرافية الكبيرة والصغيرة التى يمضى النهار فى تصويرها وتكبيرها وتصغيرها ـ يفرشها أمامه على الأرض ثم يسكب عليها بعضا من خمره، ويشعل فيها النار.. يكرر كل ليلة : «لم يعد هذا البلد يحتملنى . وأنا لم أعد أحتمله» تحولت مرارته إلى رغبة فى التدمير، وطالتنى حالات غضبه. يقول : «أنا أفسدت حياتك.. لن أقدر هنا أن أكون شيئا، منذ سنوات. وأنا لا أعمل، لا أتعلم لا أعيش، أسير تخلف وجهل، عفن أحسه يضرب فى أطرافى بدأ يشعر بالاضطهاد، وبأن فى كل مكان مؤامرة ضده، يقول

لى اذهبى وتزوجى ضابطا ، أو طبيبا ، ليس لى سوى كوب الخمر.. تزوجى من يحضر لك الأطقم والملابس من غزة. اسمعى لقد أضعت حياتك مع رسام فاشل، ومصور فوتوغرافى درجة ثالثة..

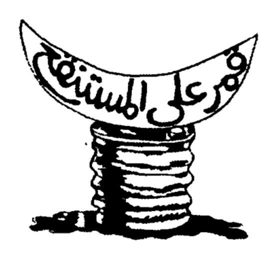
عندما يفيق كان يعتذر ويبكى ، ويأخذنى إلى بيتهم القديم فى شبرا لكى نمضى اليوم إلى جوار فراش أمه التى تحتضر، كانت المرأة تشيح بوجهها عنى، وتمسك بيد وحيدها وكأنها تتشبث بالصليب.

ماتت أمه قبل الحرب بأيام، وعندما أفاق من موتها الذى هد ما بقى منه، دخلت عليه أحزان الهزيمة وهو جثة هامدة، بأقدام عارية وفوق أشواك حادة مشينا أنا وهو خلال القاهرة المنكسرة طولا وعرضا لأسابيع وشهور، لم يعد يأكل ، ولم أعد أدرى هل يشرب الخمر أما أنها هى التى

تشربه، شبح يتسند على ذراعى، وحيدا محطما أتركه ليلا في الأتيليه القذر.

أحد أقاربه، تاجر فى الاسكندرية، استطاع أخيرا أن يدبر له أوراقا، وأن يضعه على مركب مسافر إلى فرنسا، ميتا حقق حلم السفر إلى باريس، ماتت روحه وقتلنى معه، بعد أن سافر أصابنى مرض فى الدماغ أمضيت شهورا فى غرفتى المظلمة، حبست ـ وحسب الأطباء ـ أننى فقدت البصر.





هـاهـى طيور البحر تنقش السماء المفتوحة الواسعة، لا يصل إلى هذه البقعة سوى الطيور القوية المغامرة، أما تلك الطيور الجديدة الصغيرة السوداء المحومة، فهى تطير هناك قرب الشواطىء المزدحمة القذرة عند أطراف المدن،

أحب هذه الطيور البيضاء القوية التى تطير عاليا، ثم تختفى عند الأفق فى تشكيلات ـ دائما ـ جديدة ، إنها تطابق حلمى أو هى تصنعه.

كانت «نجية» قد غلبها ــ بعد الطعام ـ النعاس.. أسندت ظهرها إلى مقعد مجاور لى، وأراحت جسدها الأسمر السمين على الرمل الأبيض، اختفى تامر مع لمياء فى جولات بعيدة فى الماء وعلى الشاطىء ، وبدا أن الزمن سوف يعطينى غروبا هادئا مهيبا، ساعات قليلة من ذلك المطلق الذى حلمت به، مع احمرار الشمس وتشكيلات الطيور البعيدة، بدت لى حياتى وكأنها أوراق متناثرة تتوق إلى الترتيب، كأن لحظاتى تريد أن تنسجم وتدخل فى سياق ، لم يعد التذكر يدمى أو يجرح لكنه ينساب من ذهنى إلى البعيد كتلك الطيور.

إنها عودتى الأخيرة مع منير فكار، أريد الطلاق منه كما لم أرغب فى شىء آخر فى حياتى من قبل، هو كان قد بلغ القمة فى الدور الذى يقوم به هناك ، وفى محاولات الكتابة والانتشار فى كل المجلات هنا وهناك، كل كتاباته كانت

مكررة وسخيفة، يكتب كلاما كأنه مضغ اللبان، يكتب بسهولة شديدة، أسمع الكلام «يطرقع» في أذني ولا يعني شيئا، علاقته بالمال تحولت إلى شيء لم أعد أفهمه ، أحيانا - في الليل - أشعر به يدمدم في الغرفة أو في الصالة يدمدم دمدمات أحسبها صلاة لحساباته في البنوك أو لودائعه الأجنبية.

بعد مغامرات جنسية جارحة لي وله، امتنعنا - تقريبا - عن أي اتصال ، كنت قد قررت ألا أرتدي الحجاب إلا للضرورة، وكان هو قد بدأ يدخل في أدوار من التعالي والارتباك، يتهمني بالكفر، وبأنني لا أصلي، ولا أعلم أولادي دينهم كما يجب ثم يعود ليتهمني بالتبذير، وبأن لي مشروعي الخاص، وأنني أتآمر عليه، وأضر بمشروعه الذي من أجله يحتمل هذه الغربة، وهذا الكرب «هل تحسبينني مستمتعا هنا.. أريد أن أضمن لكم حياة محترمة.. «محترمة

فقط»، أنت لم تعرفى الفقر، بنت الكوربة فى مصر الجديدة لا تفكر إلا فى الكريمات.. والملابس الداخلية الناعمة».

أشد ما يثيره كان صمتى وعزلتى التى فرضتها على نفسى ، عملى فى التدريس كان يستغرق أربعة أيام، وبعدها لم أكن أغادر غرفتى تقريبا - حتى الأولاد تركتهم للشغالات اللاتى كان يغيرهن باستمرار بعد أن يتهمهن - دائما - بالسرقة، تركت البيت - تماما - ليتحول إلى شقه تشبه سكن الطلبة أو المهاجرين، امتنعت عن التدخل فى أى شىء لأننا كنا نختلف على كل شىء ، حالة الأولاد كانت تقتلنى، وعيونهم تدعونى، ولكن ظل منير الثقيل كان يغطى على كل شىء ، ولا يترك لى حلا إلا الطلاق أو الانتحار.

نزلنا جميعا إلى القاهرة ، وكان مفهوما بيننا أننا قد اتفقنا على الطلاق ، لم أكن أريد شيئا سوى أن يترك لى الأولاد ، فى الغالب كان يبدو موافقا على كل شىء إلا هذه

النقطة، كأنه تاجر يفاصل فى الثمن، يريد أن يأخذ «تامر» وآخذ أنا «لمياء» وسرعان ما يغير رأيه، ويعود ليقول افعلى ما تشائين.. أما الطلاق فلا.

ورغم أنه كان يملك أكثر من شقة فاخرة فى القاهرة، إلا أنه حشرنا جميعا فى شقة حقيرة فى المهندسين استأجرها نكاية فى ، تركنى أنا و «تامر» و «لمياء» فى الشقة أسابيع ، يدخل ويخرج، لايتكلم ، ويغيب عنا ليالى، ليعود ويقول إنها أشغال عاجلة، كان مرتبكا ، ضائعا، يفتش فى أوراقى، ويتلصص على خروجى ودخولى وتليفوناتى وحتى أحاديثى القليلة مع الأولاد، يصرخ «لابد أن أعرف ما تدبرينه» أما أنا فلم أكن أستجيب ، ضائعة حتى آخر رمق، لا أستطيع أن أرى الأولاد إلا نائمين بعد أن تهدهما الحيرة، والقلق والإهمال، نوافذ الشقة كانت ـ دائما ـ مفتوحة، وأنوارها ـ دائما ـ مضاءة، تنبعث منا جميعا رائحة الموتى.

بعد أن تصورت أن الزمن قد تجمد وأننى سوف أعيش هكذا إلى الأبد، وقف أمامى ـ فجأة ـ فى جلبابه الأبيض القذر، مد رقبته إلى الأمام كما تفعل سلحفاة عجوز وقال : «غدا فى العاشرة صباحا، سيحضر المأذون وتخرجين من حياتى إلى الأبد...».. أدخل رأســه داخل جلبابه، واختفى، لا أذكر كيف مضت بى الليلة، ولكننى أذكر طعم ملح دموعى وأنا أعجن «تامر» فى «لمياء» وأضمهما معا إلى صدرى.

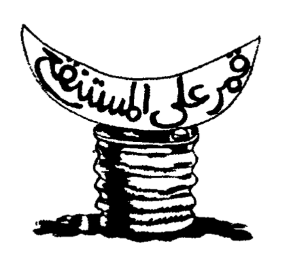
جاء إليه ـ فى الشقة ـ أصدقاؤه ليلا، طلب منى أن أخرج لمقابلتهم، وقال : هم أصدقاؤك أيضا.. ويسألون عنك، دفنت نفسى فى نفسى داخل غرفة الأولاد، واحتميت بمتاريس الظلام والصمت.

ضوء العاشرة صباحا ، والذباب الصيفى الكثيف، والأطباق القذرة الباقية من سهرة الرجال ، كانت كلها فى

استقبال المأنون عندما وصل، أنهى الرجل مهمته فى بطء شديد، حسبت الوقت قرنا من الزمان، منظر دفتره الكبير - على المنضدة - وسط الأطباق القذرة التى لم يرفعها أحد كأنه صورة سريالية، يدى كانت مرتعشة، وأنا أكرر التوقيع.

لم أشعر «بتامر» و «لمياء»، وهما يوقظان «نجية» ويطالبان بما بقى من طعام، توسدت لمياء فخذى وتمددت على الرمال، وأخذت أداعب شعرها المبلل الطويل، بينما أعطانا «تامر» ظهره العريض، وأخذ يأكل طعامه، ساكنا يتأمل البحر، وانشغلت «نجية» بجمع الأشياء استعدادا للرحيل.





«الحمد لله» ! كلمتى السحرية ، أقولها عندما تهدأ نفسى، وإذا ردتها هدأت نفسى، ينتظم شىء ما فى علاقتى بالوجود، أعرف حدوى، أشعر بعطايا اللحظة الفريدة التى لاتتكرر.

ابنتى «لمياء» هادئة، رأسها على فخذى، وجهها ساكن جميل، يلمع من الشمس وملح البحر، نادرا ما تستكين إلى جوارى ونادرا ما لا أتوتر وهى معى. الحمد لله تهبط

الشمس اليوم ببطء شديد ، فى سماء صافية منقوشة ـ فقط ـ بتلك الطيور الراحلة إلى بعيد ، يقترب اليوم من نهايته فى هدوء بلا حوادث ولا مفاجآت.





تـــلك ساعات غامضة مؤثرة فى النهار، مثل أيامى بعد أن رحل «عزيز» إلى فرنسا ، كل البلد كان صريعا ، ولست أنا وحدى ، لم يعرف الأطباء سببا لذلك الصداع الرهيب، والعمى المؤقت الذى أصابنى، لم يكن موجودا معى فى بيت مصر الجديدة سوى أمى المريضة، وأبى الذى ضرب الشلل نصف جسده ، أما أختى الصغرى «نورا» فقد كانت تستعد للزواج من تاجر خليجى، خطفها من الجامعة،

بعد أن سحره منظرها شبه الأجنبى (اتخذت قرارها بسرعة غريبة، وقررت أن تترك الجامعة، وتتركنا، وتترك البلد إلى حياة لا تعرف عنها شيئا، سوى أن بها كميات هائلة من النقود). كانت «نورا» ترعانى فى أوقات فراغها، تصحبنى مرة إلى الطبيب، أو تستدعيه لى، وتمضى معى ساعات قبل أن تنام تحدثنى عما اشترته أو سوف تشتريه، لم تكن تخفى سرورها بأن عزيز قد رحل، وانتهت حكايتى معه، أما أبى فقد كان يراقب العالم حوله فى ذهول، ولا يكف طوال النهار عن مطاردة الخادم الصغير الذى خصصناه لرعايته بطلباته التى تلخصت فى طلب الطعام والماء والعناية بنباتات الظل التى كادت تتوحش وتخنق كل من فى الشقة الواسع.

الصمت والوحدة كانا هما ـ فيما يبدو ـ العلاج الوحيد لى، بدأت نوبات الصداع تتباعد ، والنظر يعود إلى عينى اللتين أضعهما أغلب النهار تحت كمادات شاى دافىء

ومحاليل أخرى، أيام ممتدة، يختلط فيها الليل بالنهار، تصلنى أصوات العمارة والشارع القريب، وكأنها قادمة من عالم آخر، بالطبع لم أكن قادرة على القراءة أو التفكير، ولكن كان هناك تصميم غريب على أن أعود للحياة، أن أنزل ـ مرة أخرى ـ للشوارع التى دمرتها الهزيمة، وأفرغها غياب الحبيب الذى كان، أفتح الراديو، وأغلقه، على أصوات خشنة متصنعة وكاذبة، وأغان يختلط فيها النواح بالخلاعة، أصوات ندابات بغايا تحاصرنى ، أغلق «الراديو » ولا أفتحه لأيام، أشعر أننى حيوان جريح اعتزل كل شىء فى مكان بعيد ليسترد عافيته، وهو وحده يستطيع أن يعالج مرضه وجروحه.

كنت قد عينت منذ شهور معيدة إدارة أعمال فى كلية التجارة، ولم تتح لى الفرصة لكى أمارس عملى.

دخلت فى إجازات مرضية متتالية، أستاذى الدكتور

«السحار» كان الوحيد الذى يسأل عنى، يرسل لى ـ أحيانا ـ ابنه وأحيانا تلميذا من تلاميذه يسأل عنى وكأنهم يزورون ميتا أو مجنونا، عندما زارنى هو بنفسه مرة فى الصباح أمسك برأسى بين يديه فى أبوة غامرة وقال وهو يودعنى «يمكنك أن تجعلى من فترة النقاهة هذه، ميلادا جديدا، أنا فى الجامعة يا سناء.. أنتظرك» ، كان الرجل ـ يرحمه الله ـ آخر الأساتذة الكبار الذين صادفتهم فى الجامعة ، كان هو الذى سهل سفرى بعد عام إلى لندن فى بعثة استمرت عامين، حصلت فيها على اللقب الذى لا أدرى ماذا أفعل به الان : دكتور سناء فرج.

أهم ما ساعدنى على الشفاء، رغم الدمار الداخلى والخارجى هو أننى أصبحت قادرة على أن أرى علاقتى «بعزيز» على أنها شىء خاص حدث لى أنا وحدى وانتهى، أعطانى ذلك الرجل الجميل الذى دخل حياتى وخرج منها

معنى وجودى، عرفت معه معنى أن أكون امرأة، وأن أكون مصرية، فى فترة النقاهة تلك ترسبت فى روحى المتعبة كل تلك المعانى بلا زيف ولا ادعاء، عرفت معه أن المرأة شىء آخر غير الماكياچ والثياب، غير الجسد والجنس والحمل والولادة، شىء متصل بالأرض والطبيعة، شىء لا يعطيه لك أحد ولا يقدر أن يسلبه منك أحد، وعندما كنا نتكلم أنا وهو فى السياسة، وأحوال البلد كانت الحوادث والشائعات تتساقط كأوراق الشجر، ويصل هو إلى لب الأشياء فى كلمات بسيطة طبيعية، فأرى أمامى صعوبة الواقع وقسوته ، وضرورة التمسك ببرعم أخضر صغير ينبت فى قلب الناس و الوطن ولم يكن الحديث معه مكابرة أو تفاصحا ، ولكن حلم ببصيص فهم أو قدرة على تحول وتغير.

كيف هان عليه أن يدمر كل شىء؟ بالشراب المتصل أولا، ثم بالرحيل. فى أيامه الأخيرة معى كان ينظر إلى ولا

يرانى، كان مشدودا من عيونه إلى مصير غامض، بدأ يقرأ فى كتب عن تناسخ الأرواح، ويحدثنى عن العودة المتجددة للوجود، ويقول سوف نلتقى ـ حتما ـ فى وجود آخر ستكونين أنت.. يمامة أما أنا فسوف أكون حبات رمل فى صحراء.

يقول لى خطأ حياتك الفادح أنك لم تدرسى الفلسفة أو الفن، مالك أنت ومال التجارة وإدارة الأعمال، أنت لا تستطعين إدارة حياتك، لم يكن يعرف أى قدرات تولدها الوحدة والألم والتصميم على الدفاع عن النفس والبقاء.





مـــن يرانا فى طريق العـودة من الشـاطـىء يحـسـبنا أسرة سـعيدة غاب عنها راعيها ـ أو سبقها ـ ليعد لها بيتا وطعـامـا، «لميـاء» تمسك بذراعى وتحـدثنى بلا انقطاع عن زميلات لها ومشتريات ترغب فيها، ووقائع نصفها حقيقة ونصفها خيال، أستمع لها وأشرب ملامحها المليئة بالحيوية والاندفاع، أما تامر فقد ركب على نفس «نجية» التى كانت تعرف كيف تروضه، وتسمع له، وكأنها مستمتعة ومستغرقة فى كل ما يفعل أو يقول.

انتهى الرأى إلى أن يذهبوا إلى الشقة لتغيير الملابس، والاستعداد للسهرة فى مدينة الملاهى. حاولت «لمياء» دون إصرار أن تمد صحبتنا الخاصة بأن تبقى معى، لكنها لم تقاوم إغراء «تامر» بليلة فى المدينة الصاخبة.

تركتهم عند ناصية قريبة إلى البيت، ودخلت وحدى وسط زحام أول الليل فى مدينة تتصنع البهجة، كنت أحاول أن أتذكر الطريق إلى مقعى مطعم قديم ، يقع فى شارع جانبى، كان يملكه يونانى عجوز وزوجته.

لماذا تكسو المدن نفسها ـ دائما ـ بقناع أو ماكياچ يخفى حقيقتها، الشوارع الكبيرة، والمبانى الضخمة السخيفة تتصدر كل شىء، كاتمة على أنفاس الشوارع الجانبية الحنونة التى تتكون من بيوت قديمة جميلة لها طعم ورائحة تكاد تنطق بالقصص والحكايات.

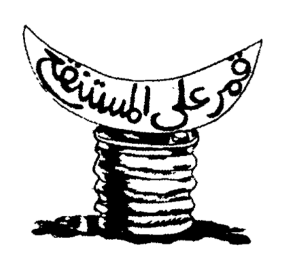
رحت أطارد الليل الهابط خلال تلك الشوارع الجانبية

بحثا عن ذلك المقهى المطعم الأخضر القديم، الذى أكلنا فيه ليلة سمكا وشربنا زجاجة نبيذ، عندما كان «عزيز يشربنى أنا، ويسقينى كل الوجود معه.

تصافح وجهى أشجار عجوز مائلة على تراب الشوارع الناعم، امتلأت نهايات الشوارع «بغرز» الشاى والدخان، وعربات الساندوتشات المضيئة ، وعربات النقل الصغيرة والكبيرة والراكنة، ولكنها جميعا، لم تقدر على خنق «روح المدينة» التى كنت أحبها، أذكر سجاجيدها الصوف الملونة، وأسواقها البدوية عند أطراف الصحراء ، فأحسب الدنيا ـ كانت ـ قافلة عروس تستعد للسفر، الموجود أطلال ـ فقط ـ لكنها كثيفة الرائحة.

عندما وجدت ما أبحث عنه، أدركت فعلا أن كل شىء قد اندثر، لم يعد هناك وجود لليونانى العجور ولا زوجته، والمقهى المطعم الأخضر القديم تحول إلى « كافيتريا » قذرة،

تلمح على مفارشها البلاسيتك، انعكاسات أضواء لمبات «النيون»، تفحصنى المعلم الجديد صاحب المكان بارتياب، يكاد يسألنى : وحدك؟ اخترت منضدة مجاورة للنافذة المغلقة، عندما جاء الجرسون يمسح المفرش.. تذكرته كان الدهر قد أكل عليه وشرب، كنت أريد أن أتنوق كوبا باردا من «البيرة» لكننى عرفت أنهم لا يقدمونها إلا فى فنادق السياحة، فطلبت أى شىء بارد، ورحت أشربه فى قلق واستغراب.





كـانـت النقاهة الحقيقة هى تلك الشهور التى مرت بعد أن رجعت إلى الجامعة، البلد كله والجامعة على الخصوص كانتا فى حالة لا توصف، كأن كل شىء قد أقتلع من جذوره وألقى فى وسط الطريق، خطوات الناس مرتبكة وعيونهم زائغة، وحتى أصواتهم وانفعالاتهم لا يتحكمون فيها ، كنت وحدى الخارجة من نقاهتى كأننى جديدة، لاشىء بعد القاع المظلم الذى سقطت فيه، كنت أعتنى بأن أسمع،



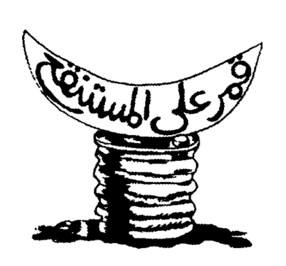
بأن أفتح عينى وصدرى وعقلى، كأننى غريق يأخذ أول نفس من هواء، ساعدنى الدكتور «السحار» كانت له غرفة نصف مظلمة يبقيها ـ دائما ـ مغلقة، يجلس فيها أغلب الوقت وحيدا، يراجع أوراقه، أو يطلق سحابات من دخان «البايب» القديم الذى لا يغيره، يحاول أن يبقى نفسه منفصلا عن الضوضاء والصراعات، يعرف الآخرون قدره، ويخافون منه، فتزداد وحدته وعزلته وعذابه بما يراه يحدث فى البلد وفى الجامعة لا يستطيع حياله شيئا، ولايستطيع أن يقبله، استعمل آخر ما له من نفوذ فى أن يدفعنى ويمكننى من الحصول على البعثة، لسبب لا أفهمه، لم أكن أشطر المعيدين المتقدمين ولا أكثرهم نشاطا، ربما لأننى كنت أقلهم نفاقا له، وأكثرهم عزلة عن الانغماس فيما يحدث، هناك شىء من الكبرياء والتعالى جمعنا معا ، فى

تلك الغرفة نصف المظلمة، المليئة بالكتب القديمة.. كنا نتبادل حزنا حقيقيا.

ماتت أمى فى صمت وسط نباتات الظل التى رباها أبى لكى تخنقنا جميعا، أغرب ما فى وفاتها أن أبى لم يذرف دمعة واحدة، كأن ما يحدث لا يعنيه، أما أخى الكبير «أمين فرج» الطبيب المهاجر إلى كندا فإنه لم يحضر ، واكتفى بمكالمة تليفونية قصيرة، و«نورا» أختى التى كانت لا تزال عروسا حضرت إلى القاهرة مع زوجها الخليجى، وأقامت ليالى فى فندق كبير، اعتقادا منها أنها بعد وفاة أمى قد تستطيع الاستيلاء - هى وزوجها - على الشقة القديمة، كنت أرى أسرتى تتحول إلى تراب يتساقط من كفى، أبى وحده - مع خادمه الصغير - يكافح الشلل فى قوة، وينطق كلماته الآمرة فى صعوبة، هو الآخر يكاد يتحول إلى نبات، أما أنا فقد كنت أراقب كل هذا فى لامبالاة وحسرة.

تدبير احتياجاتى المادية للسفر وخلافه كانت أول صفعة أتلقاها على وجهى، ترددت «نورا» وهى تقدم لى مساعدة مادية على سبيل القرض، لمحت فى أحاديثها وخطاباتها أنها تخاف أن تصبح هذه «عادة» ، أما أخى الكبير المهاجر فى كندا فقد اعتذر بوضوح لأنه كان قد اشترى بيتا ريفيا جديدا خارج المدينة.

صرت وحدى ـ فعلا للمرة الأولى ـ بلا عائلة، بلا حبيب.. وبلا وطن، ركبت الطائرة، ولم يكن أحد فى وداعى.





فــي لندن عرفت أن «عزيز» كان عنده حق عندما قال إن أكبـر أخطائى هو دراستى هذه لإدارة الأعمـال وعلوم التـجارة، وجدتها سـجونا صـغيـرة صنعـتـها لنفسى، الاكتشاف الأوروبى كان مذهلا، وجميلا، لا أدرى لماذا يبدو الآن خافتا.. وبعيدا.. كإنه حلم لم يحدث، حاولت أن أملأ حـياتى هناك كـمـا فـعل توفـيق الحكيم وطه حـسين بالفن والمسرح والموسيقى، لكن قلبى كان فارغا وروحى مثقوبة، كنت مشدودة إلى ما تركته ورائى، متعلقة بالوطن الذى حاق

به الدمار، أتقلب في غربتي ولا أجد من أراسله، كتبت مرات لأستاذى الدكتور «السحار» ولكننى قرأت بعد فترة أنه ـ هو الآخر ـ مات فى حادث سيارة.

كان «عزيز» قريبا على مرمى حجر فى باريس، ولكننا كنا قد دفنا ما بيننا معا، ولم يكن هناك معنى ولا جدوى من نبش القبور، عرفت من بعض الزملاء أنه يلاقى بعض النجاح كرسام تجارى، وأنه يكتب ـ أحيانا ـ فى صحف المعارضة التى تصدر هناك.

العائلات المصرية هناك كانت امتدادا جديدا لما تركته ورائى، الارتباك و «اللخبطة» ، والأسر المدمرة، والعلاقات العنيفة الغاضبة، كانت تواجهنى فى كل البيوت، حالتى كامرأة وحيدة، غير مرتبطة بأية علاقة واضحة، كانت تدمر علاقاتى مع الرجال الناضجين الذين غالبا ما يكونون متزوجين من نساء غيورات، أما اللهفة على الجنس، وفهم الحرية على أنها رفع للخصوصية، فقد كانا يقضيان من البداية على أية علاقات مع الزملاء الشباب، حتى اكتفيت فى

علاقتى بهم بسلام.. سلام..أحمد نور دارس الزراعة الأسمر الطويل هو وحده الذى اقترب منى، كان صامتا وقورا، يعيش فى مدينة بعيدة عن لندن ، وينزل إلى لندن فى عطلة نهاية الأسبوع، أمضينا معا عدة اجازات، وعرفت أنه من الإخوان المسلمين، بدا لى عادلا، معقولا، يفكر ويستطيع تقدير الأمور، يمتد ظل إنسانى وافر حوله فى تسامح يغرى بالتأمل، عندما اقتربنا أكثر، وزرته وزارنى لعدة شهور، أحسست أنه يكره استقلالى، يحب أن يتظاهر بأنه يعطينى الحرية، ويكره أن آخذها، لم يكن غريبا أن اكتشف بسرعة، تحت تسامحه اللفظى دكتاتورا صغيرا وعنيفا، اختفى من أيامى بسرعة، وعدت اكتفى بالوحدة مع دروس الإدارة والاقتصاد، أو صداقات عابرة ـ فى العطلات ـ مع بعض السمر الأجانب، أو الانجليز الذين لا طعم لهم.

فى العام الثانى ـ على الخصوص ـ عادت علاقتى مع الشعر والكلمات، كنت أبحث عن دواوين الشعر الجديدة التى تصدر بغزارة هناك، فى البداية لم أكن أفهم شيئا،

لكننى كنت أعاود القراءة، حتى أعثر على النغم الذى ينتظم الكلمات، ثم أعاود القراءة حتى توافينى الصورة الفريدة التى تختفى خلف الكلمة والجملة والشطرات، أحببت «ديلان توماس» شاعر «ويلز» الذى كان اسمه يتردد كثيرا فى ذلك الوقت، قصائده تبعث القرى الجبلية الغارقة فى الضباب والبرد والفقر حية دافئة، تسخر من دم الانجليز الأزرق البارد، كنت أضم كتبه فى أغلفة من ورق ملون، وأسمع أشرطة مسجلة عليها أشعاره وهو يقرؤها وقد تحشرج صوته الرجولى المخمور بصدق طاغ ، ومحبه غامرة للناس، تجاربى مع صوته وأشعاره مترسبة فى ذهنى كأنها علاقة جسدية أشعر بها فى كل كيانى.





أحسست عيون الجرسون القديم تراقبنى من الركن المظلم الذى يقبع فيه، ارتفعت أصوات الزبائن الجدد بضوضاء فجة، أكدت لى زوال كل ما كان فى المكان من تاريخ قديم، لم يبق منه سوى المفارش البلاستيك القذرة، ولمبات «النيون».

وضعت نفسى فى عربة «تاكسى» ووصفت للسائق عنوان الشقة المفروشة، بدون «نجية» والأولاد بدا المكان عاريا ومزعجا أكثر من اللازم، دخنت عددا من السجائر، كأننى

أعوض ما فاتنى خلال النهار، بعد لحظات دق جرس الباب وحمل لى البواب «بوكيه» ورد أحمر وأبيض، مع ظرف مغلق صغير، تلصص البواب على الصالة وهو ينتظر البقشيش، كانت كلمات هانى مكتوبة بخط منمق: «لك الورد... ياقمر، ولى الوحدة، حبى.. هانى» من أين يأتى هذا الصوت المعدنى ذو الرنين، داعبت بيدى الأزهار والورود التى تعانى من الحر والإهمال، فقد تركها عند البواب من أول النهار، امتلأ قلبى بأسى ثقيل، تحدث معى الأشياء. بعد فوات الأوان، أتذكر الكلمات التى يجب أن تقال بعد أن أغادر المكان ، أشعر بالفرج بعد انقضاء اللحظة، فتشت فى قلبى عن نبضة حب، نبضة فرح، فلم أجد إلا فراغا لاهثا وخوفا من مجهول، تذكرنى وروده المسكينة بالحب الممضوغ الذى نلوكه معا، بذلك الإعياء الذى أشعر به بدلا من اللهفة على اللقاء.

جلست فى مقعدى ، أواصل التدخين ، وأنا أراقب الليل الثقيل يسكن الشقة، تضيئه أحيانا أنوار عربات عابرة أو

إعلانات متحركة قادمة من ناحية البحر.

بعد أن استقرت «نجية» معنا لشهور، ضرب القاهرة قيظ خانق شديد، عندما ينقطع التيار الكهربائى ـ أيضا ـ وتتعطل أجهزة التكييف فى غرفة نومى وغرفة الأولاد، تتحول الشقة إلى فرن حقيقى، ويستحيل النوم أو حتى محاولة البقاء فى الفراش.

أفتح نوافذ غرفة الأولاد، وأخرج أنا ونجية إلى الشرفة الصغيرة نجلس وحدنا فى الظلام، حكت لى نجية بصوت رتيب خال من الانفعال حكاية زواجها، ورحلة القهر التى مرت بها، لم أكن أرى فى الظلام سوى بياض عينيها اللامع يبرق فى كتلة من سواد.

عرفت «نجية» زوجها «أنور الاسكندرانى» فى قصر جماعة أجانب، خدمت عندهم طويلا، أبوها كان سائقا لسيارة الخواجة، أما «أنور الاسكندرانى» فكان الطباخ الأول، كان جميلا جدا، ونزيها فى ملبسه وكل تصرفاته.. «وأنا كنت سنيورة سمراء»، حقيقى، قد لا تصدقين، نحن

النوبيين لا نتزوج من أغراب، لكننى لم أستطع مقاومة حبى «لأنور» ماتت أمى، ورفض أبى بكل الطرق أن يسمح بالزواج، كنت أحلم ليلا ونهارا بأن أتزوج وأسافر مع أنور إلى الاسكندرية، حيث أهله أصحاب محلات البقالة، كنت أصدق كل ما يقول مثل ما يصدقنى «تامر» الآن أو «لمياء» نزل فى قلبى مكان الأهل، والأرض، والدين، لم يعد لى أحد سواه قاطعنى أبى وإخوتى الذين لم أكن أراهم أصلا.

فى يوم جمعة غادرنا «القصر» تاركين حسابنا حتى لايشعر أبى، وتزوجنا فى فرح إسكندرانى يوم الخميس الذى يليه، كانت «نجية» تقوم لتأتى ببعض الماء البارد، وتلقى نظرة على الأولاد، أشرب ، وتشرب بعدى، وترش رأسها بالماء ويستمر صوتها وكأنه يصدر من داخلها.

«ليس هناك أفظع من خيانة الروح والنفوس، لم تمض أسابيع حتى كان أهل أنور جميعا ـ رجالا ونساء ـ ينهشون فى لحمى حيا، لم يوفر لنا مكانا خاصا فعشنا وسطهم، كنت مستعدة لأن أحتمل أى شىء ـ وأنت تعرفين

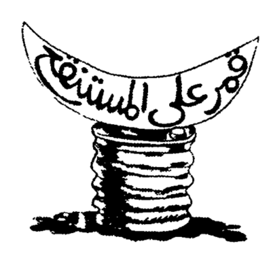
ـ لو شعرت للحظة واحدة أنه إلى جانبى، تركنى عند أول ناصية، وانضم إليهم ، يأتى كل ليلة مسطولا، اسمعه يضحك مع أهل حارة «دم الغزال» كلهم، ومع أهله الساهرين فى الصالة، ثم يدخل إلى غرفتى ويسب لونى وبرودى ، ويلعن حظه الذى يشبه وجهى. لم أعرف سببا لتحوله السريع سوى هؤلاء النساء اللاتى يزحمن البيت متباهيات أمامه بلحمهن الأبيض، بعد أن كنت أحلم بأن أكون سيدة فى غرفة أو شقة صغيرة أصبحت جارية أخدم جمعا من النسوة الغجر، ربنا لايحكم على أحد بالقهر مع الفقر وقلة الحيلة، لم يكن يريد أن يطلقنى، هن لايردن ذلك، كان يأتى إلى فراشى ويفعل ما يشاء، دون كلمة، دون صوت، دون حياة، وعندما قلت له أننى حامل، أعطانى ظهره وقال : نزليه!

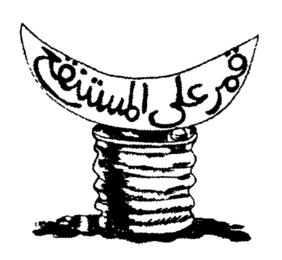
وحدى خلف قلعة «قايتباى».. الله وحده يشهد وموج البحر، أجهضت نفسى، حملنى الرجال غارقة فى دمى إلى بيته فى حارة «دم الغزال».

أول ما وقفت على قدمى غادرت البيت والإسكندرية ولا أعرف حتى اليوم إن كان قد طلقنى أم مازلت على ذمته.

لم تكن «نجية» تبكى أبدا أو تنفعل وهى تحكى لى حكايتها مرات ومرات، مضيفة تفاصيل حارقة جديدة تكشف عن وحدة رهيبة فى الروح، كانت تحكى فى نبرة باردة كأن ما حدث حدث لشخص آخر أو كأنه من طبيعة الأشياء.

دق جرس الباب ـ مرة أخرى ـ لو كان «هانى» فإنى سأذهب معه ـ الليلة ـ حتى إلى الجحيم.





هـــل لأن الشمس تخللت جسدى طوال النهار وهواء البـحـر؟ أم لأن روحى عـصـرتـهـا أيادى الماضى القـريب والبعيد، تحرك فى داخلى غضب وشبق ورغبة غامضة فى الانتقام من شىء ما، أو من نفسى.

هو هانى قبطان ـ بالتأكيد ـ من يدق الباب الآن.. جاء يحصل على ما منعته عنه بالأمس، فتحت له، وعلى وجهى قناع من الترحيب والاعتذار البارد، مد ذراعيه يريد أن



يحتوينى فى حرارة محيرة، لم أضىء النور واكتفيت بأنوار الشارع والإعلانات التى تغمر الشقة للحظات لا أستطيع معها أن أتبين قبحها المنفر.

وهو يلامس وجهى وفمى فى تقرب متسرع قال إنه التقى بالأولاد فى طريقهم إلى مدينة الملاهى وصحبهم إلى هناك، عرف منهم أننى شاردة أتجول، بحث عنى حتى كاد ييأس ، لكنه الآن، وقد وجدنى، لن يتركنى.

أوقفت حديثه بقبلة سريعة، وتركته حائرا تحت الأضواء المتغيرة، أحب أن أبقيه فى انتظار مفاجأة ما.. الانتظار والتوقع يجعلانه فى أحسن حالاته، لم أعتن بحمامى كما تعودت، يبدو أننى أنا الأخرى فى عجلة من أمرى، نثرت على جسدى قطرات من العطر النفاذ الذى يحبه ويهديه لى دائما، وارتديت فستانا صيفيا واسعا ، مازال باقيا فى جسدى بعض من حرارة الشمس وهواء البحر.

لمحته من باب غرفتى يشعل سيجارة حشيش نفاذة الرائحة يهدئ بها تلهفه الصبيانى الذى لا يعرف كيف يخفيه.

هناك «سكك» فى علاقتنا لو توقف عندها عقلى لانتهت الليلة بخناقة، أو اختلاف صامت أمر من السم الزعاف، منها حالة «السُطل» والبلادة التى يدخل إليها بعد سيجارتين أو ثلاث من تلك العلبة التى لا تفرغ أبدا، يحيله هذا الدخان عندما يبتلعه وحده إلى كائن غريب، لا أعرف كيف أصل إليه.

لن أتركه الليلة يدخن كثيرا، أو يشرب كثيرا، أريد الليلة صحبة إنسانية بعض الشىء حميمة بعض الشىء، هل يستطيع هانى قبطان.. تلك القامة الطويلة المعقوفة التى أرى انعكاسها الداكن فى مرآتى.. أن تمنحنى أى شىء .. أى شىء.

لست عجوزا بعد أيها الرعديد، لست عجوزا مازلت راغبة فى الحب الحقيقى، قادرة على عمله وصياغته.





دبــرت في البيت بسهولة رحلة أسوان حتى أكون مع عزيز فقط، نسافر أكثر من عشرين فتى وفتاة من الفنون، والتجارة لكنني لا أرى غيره فقط، ولا أفكر إلا فيه.

كل القطارات والقرى ، والنخيل ، والآثار، والمعابد، ليست سوى جزء من لقائنا المندفع في تيار أقوى من النيل، وجهه وجسده سيكونان لي وحدي وأنا سوف أعطيه نفسي.

استطاع عزيز أن يرتب لنا رحلة مستقلة، نذهب فيها

وحدنا إلى أستاذه وصديقه الرسام الذى يعيش فى قرية من قرى النوبة القريبة.

كانت القرية شبه خالية، ناعمة ممتدة فى اتساع إلى جوار نيل لم أر ـ أبدا ـ مثله ، واسع وصاف وصامت كأنه يسمع كل حديث الكون، البيت يفتح مباشرة على النيل ، والأرض رملية طرية تنطبع فوقها أقدامى ـ وأقدام عزيز ـ العارية فى جولات لاتنتهى.

صديقه الرسام كأنه أحد الرهبان، مشغول جدا، وطيب جدا، حتى لانكاد نشعر بوجوده، أعطانا حجرتنا الواسعة المستقلة المفروشة فرشا نوبيا بسيطا، أجمل ما فيها الفراغ والاتساع والنظافة، وألوان «الخوص» الصفراء و الحمراء التى تلمع فى النهار وفى الليل.

الرجل كأنه اختفى ، عندما نريده نبحث عنه، لتدخين سيجارة أو تبادل بعض الكلمات، النهار والليل لنا، نمشى

ونقرأ ، ونغلق على أنفسنا باب الحجرة ، نعيش داخلها كل الدهشة والاكتشاف، وتلك اللذة المصفاة التى تمتد من أطراف الأنامل إلى داخل الأحشاء.

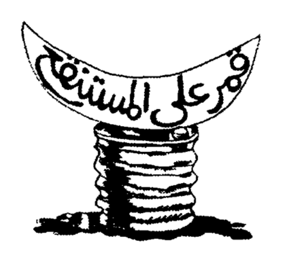
لم أعط نفسى كاملة لعزيز إلا فى هذه الغرفة التى يتسلل إليها ضوء النهار، فلا يجرح ولا يعتدى ، يحيطنى داخلها ذلك الصمت المقدس الذى أشربه مع كلمات عزيز التى يحدثنى بها على كل جسدى.

عزيز يرسم «اسكتشات» بالرصاص لصخور ونخيل، يستغرق فيها فأحبه أكثر أرى خطوطه وأشكاله تكشف لى أسرارا خاصة بى لا يعرفها أحد غيرى، يضع ورقته أمامى، وينظر إلىَّ فى تساؤل، ألقى بنفسى مرة أخرى عليه ، أطوق رقبته، كل رسائله تصلنى ، يمسك بيدى يعلمنى الرسم، أقف معه على النيل فى الفجر، أتعلم استقبال السكون والضوء والهواء بعيونى، وكل كيانى.

جسدى كله يتفتح فى خصوبة وقوة، حريتى حقيقتى معه، يداى تنالان ما تشتهيانه، أطراف أصابعى اكتشفت هناك أنها من نقطى الحساسة، يأخذ كفى بين يديه كطائر صغير، يخاطبنى خلال أناملى ، أغلق عينى، يختلط على الوجود.

ذات صباح ـ قبل أن نسافر ـ أستيقظت لأجد أنه قد وضع «طشت» كبيرا فى نهاية الغرفة تحت بقعة ضوء ، وجاء بماء ساخن، وأوقفنى هناك، وغسل لى جسدى كله بالماء والصابون تحت ضوء الصباح الناعم.





فـــى لحظات كنا عند الفندق القديم، كان له «شـاليه» قـرب نـهـاية الفندق منعـزل ومـسـتـقل ، فى الداخل كـان كل شىء مـعدا ، كمسـرح صـغير، يتصـدره فـراش واسـع مـغـر، ولوازم السـهرة موزعة فى الغرفة، اعتنى هو بتجهيزها مع جرسون الفندق.

خلـع مـلابســه ووضـع نـفـسـه فى جلبـاب واسـع ملون، واسـتراح فى مـقـعد وثير، مع كـأس مـترعة من «الويسكى» الفاخر.

كان علىَّ أن أختار من أين نبدأ. صعبة دائما لحظات البداية هذه معه، لاشىء يخرج منى أو منه فى تلقائية.

تعلمت أشياء كثيرة فى الحياة، تعلمت كثيرا من المشارب والطرق الملتوية لكنى مازلت أجد صعوبة بالغة، أو استحالة فى استعمال البشر، وفى أن أرتب تعاملى معهم على أساس المقصد والغرض، والمنفعة والربح، خذ وهات .

لو أستطيع هذا مع هانى، لكان كل شىء عمليا ومنطقيا ولذيذا، هو فى حاجة إلىَّ لأيام أو ساعات يكسر فيها ملل حياته الزوجية، وجفاف زوجته، وتعوده عليها وهو يوفر لى رفقة طيبة، وفراشا ممتعا - أحيانا - لمرأة على مشارف الخمسـ....

هل حقا مضى كل ذلك العمر.. ولاشىء يزرع المعنى. هلع بلا قرار فى قلبى، يصرفنى عن هانى الذى كأننى أنسى وجود اللحظات.

فى البداية كان مشروع الزواج ـ المزعوم ـ لعبة مسلية، دخلت فيها وأنا عارفة.. وراضية، أدخل معه فى التفاصيل، وفى ترتيب شئون حياتنا المشتركة، وحياة الأولاد، واحتمالات الحياة فى أوروبا، أو فى أى مكان بعيد أختاره، مشاريعه هو العملية مرتبطة بى، وبترتب حياة مريحة ناعمة لى.

يريد أن يعوضنى عما فات.. عما حدث لى.. تستفزنى نغمة العطف والإشفاق، أؤكد له أننى حصلت على ما أستحق ، وأننى لا أشعر بالمرارة، يضحك عندما أردد أننى لا أقبل تعويضات من أى نوع.

مللت هذا الموضوع، أراه هشا، زائفا، ولن يكون، شىء ما فى أطراف عينيه يؤكد لى أن ما نفعله ليس سوى علاقة عابرة، تأخذ ما تأخذ، ثم تسقط تحت عجلات حياته المتصاعدة السالكة طريقا آخر غير طريقى، حاولت أن أعيده إلى أرضى وأرضه، إلى هذه الغرفة وهذا الفراش، ولكن

كؤوسه وسجائره المتصلة كانت تحاصره فى دور لا يستطيع أن يلعبه بإتقان كاف.

غيرت الموسيقى الخفيفة التى كانت تصاحبنا من أول السهرة، فتحت بعض الهواء فى الغرفة، وطلبت له ولى طعاما ساخنا دسما.

ونحن ننتقل إلى الفراش كان يردد بمعان مختلفة انه لايريد معى ـ أنا بالذات ـ علاقة عابرة، أنا بالذات لا أصلح لعلاقة عابرة، قالها بالعربية، والإنجليزية، والفرنسية.

وهو يضمنى.. أخذ يردد: أحبك.. أحبك. عندئذ انقسمت روحى نصفين.





أخيـــرا كفت أوضاعى المالية عن أن تصبح مزعجة، نصف مرتبى الذى أقبضه بالدولار يضعنى الآن ـ فى أمان مؤقت بالنسبة لمطالب الحياة، لا يحق لى أن أشكو وأنا أرى ما حولى.

النقـود التــى مع هانى ومع من هم أغنى منه ليـست نقودا، هى تيار فاسد ومفسـد، لم أرغب فيه أبدا، بل أكرهه.



منير كان يقول لى دائما: «أنت تحبين أن تصرفى النقود، ولا تعرفين كيف تكسبينها»، وهانى يقول : «أنت المرأة الوحيدة التى لاتغريها النقود».

الهلع المجسم كان فى السنوات التى أعقبت الطلاق، كنت أعيش على الفتات الذى استخلصته من منير، والنفقة القانونية الشحيحة.. بقيت بعد استقالتى من الجامعة خالية بلا عمل، مع خوف الفقر، وخوف الغد، ووحدة امرأة لفظتها طواحين الهواء يصبح العالم مكانا عدائيا بشعا، ما يقرب من عامين عشت وحيدة فى كهفى ـ شقتى فى مدينة نصر – – لايطرق بابى سوى من يطالبنى بنقود، أو يتلصص، أو يلقى علىَّ نظرات أو كلمات الرفض والاحتقار، كان علىَّ أنا ـ دائما ـ أن أرفع أكوام الزبالة.. أن أحملها على رأسى حتى أظل أنا وأولادى وبيتى فى نظافة كما نستحق، أخذت هذا الحق لنفسى من بذاءة تجربتى مع منير، لم يكن فى الحياة أى هامش صغير لشىء آخر غير الدفاع عن الوجود.

احتاج الوقت إلى قوة هائلة، لا أدرى من أين جاءت.

أشعر براحة غامرة، أكاد أقول سعادة عندما يبلغ اليوم نهايته، أضع لمياء وتامر فى الفراش، أعود إلى صالة الشقة وحيدة، أجد على منضدة السفرة قماشا لفستان جديد كنت قد اشتريته، وأوراق التفصيل والمقص، أتابع ضرباتى غير المدربة بالمقص اللامع ، وأرى ألوان القماش تتناثر أمامى بلا شكل ولا معنى.

أحمل وحدتى إلى فراشى ومعى قطع متناثرة بلا شكل ولا معنى من ماضىّ البعيد والقريب.





الحمد لله على الانفتاح وشركات الاستثمار، والمكاتب والبنوك الأجنبية، لولاها لما وجدت مثل هذه الوظيفة فى مكتب «الحارونى» للاستيراد والتصدير. أو كان علىَّ أن أحشر نفسى فى أحد المكاتب الحكومية القذرة المزدحمة ، أو ألقى بنفسى فى شركة قطاع عام خاسرة تبعث الحزن والكآبة، هنا مكاتب نظيفة، وأجهزة تكييف تعمل ـ وعلى الأقل ـ بعض الاحترام لنظام العمل.

من حسن حظى أن «فليز الحارونى» الرأسمالى المصرى العجوز، كان حاضرا بنفسه فى يوم المقابلة، واختارنى من بين عشرة من المتقدمين، قال وهو يرحب بى فى طاقم مكتبه الخاص: ليس لأنك دكتورة.. ولكن لأنك تحترمين العمل وتحبينه.

فى الحقيقة كانت ثقة «الحارونى» فىَّ، وإعجابه الواضح بتصرفى «الدوغرى» المختلف عن المحجبات جسدا وروحا، أو غيرهن.. ثقته هذه هى التى ضمنت لى البقاء والترقى، فى المكتب كان يعتمد علىَّ فى تلقى خطاباته و «فاكساته» والتليفونات المهمة التى تصل إليه طوال اليوم من الخارج ، والتى لا يحتمل الرد عليها أو البت فيها أى تردد أو تأخير ، كنت حاضرة بالنسبة له دائما، فقد كنت أحب الرجل، مذهولة بنشاطه، وهو فوق الثمانين ، كأنه معجزة متحركة ، أو أثر من الآثار التى تبعث الفخر فى المصريين.

عندما توطدت علاقتنا، كان يشكو لى من أولاده «أشباه الرجال» أفسدهم مال أبيهم قبل أن يصبحوا رجالا، لا فى الحياة ولا فى العمل ولا حتى مع زوجاتهم.

كان العمل إلى جواره متعة. رغم الملايين التى يتحرك فيها ، فإنه كان مقتصدا مدبرا يحب حياته، ويومه وعمله ويحيط نفسه بأشياء صغيرة يحبها ولا يغيرها.

دقائق من العمل معه، أو حتى مجرد الحديث الذكى العابر، تعوضنى عن سخافة التعامل طوال النهار مع الزميلات من النساء العاملات معنا. كسولات مهملات يتقن دائما إلى «النم» و الكلام الخارج، عندما أضبط «راقية» ـ التى تجلس على المكتب المقابل ـ تنظر إلىَّ، أرى وكأنها تخرج لسانها لى وتقول: «لقد استمتعت مع زوجى ليلة أمس».. و«سعاد» تنتهز فرصة أى خلوة بيننا لتذكرنى بقدرتها على أن تقدمنى إلى شباب «صالحين لكل الأغراض».

أما ناجى زميلنا الشاب، فقد كان يحيطنى برعايته فى وله، تبدو فيه تعقيدات أحاسيسه المختلطة تجاهى، أشعر بها فى انبثاقات عاطفية أو شهامة رجولية شابة.

عالم المكتب كان بعيدا عن واقع البلد، والشارع، كأننا فى جزيرة نلعب لعبة «أتارى» مسلية، و «الحارونى» يبدو دائما نظيف اليد عادلا، لكن لابد أن عزيز حبيبى كان سيسميه «الرأسمالى المستغل.. سارق الأحلام»، أظن أن هذا لم يعد مهما الآن. كلنا نسرق أحلام بعض، أو على الأصح لم تعد لنا أحلام، المهم أننى أملك مفتاح درج ملىء بالأسرار، وأننى أرى من خلال هذا المكتب ـ وهذا الرجل ـ عالما غريبا لا علاقة لى به، فى هذا المكتب قابلت هانى قبطان.





عـنـدمـا أنزل إلى القاهرة فى أجازة أنا ومنير فكار كان يظل يرتب لسهرة تجمعنا معا عند صديقه القديم «الجمال» العازب الأبدى وصاحب الحكايات والأساطير فى مجالات النساء والكارت وصداقة المشاهير والنجوم، منير كان يفتخر بصداقته دائما ويقول إنه الصديق الحقيقى الوحيد، ولكن عندما أرهما معا كنت أشعر أن «الجمال» يحتقر منير ، وينظر إليه على أنه «دودة» و «كلب فلوس»..

أشعر أنه يراه من باب العشرة القديمة.. وهى مرة أو مرتان فى العام على أية حال.

فرض عليه منير فى هذه الليلة زميلنا فى الإعارة الدكتور عبد الصبور أستاذ الفلسفة الذى تحول بعد دقائق إلى «فرجة» لكل الحاضرين بعد أن شرب وأكل بيديه ونظارته، وكل جسده وملابسه، كان يريد أن يفعل كل شىء فى نفس الوقت، يأكل ويشرب ويتكلم، منظر مألوف للعائدين فى إجازة من الإعارة، ودائما ما ينتهى نهاية مأساوية. بعد أن فرغ الحاضرون من التندر به «والتريقة» عليه انصرفوا عنه. شعرت بأننى مسئولة عنه بشكل ما ، فقد جاء معنا، ولا أحد يعرفه، انتقلت إلى جواره أحاول أن أرده إلى صوابه، أو أصرفه إلى حديث آخر، وليتنى ما فعلت!

أمسك الدكتور عبد الصبور بيدى وانخرط فى بكاء مفاجىء ، أخذته إلى غرفة مجاورة وأجلسته على مقعد فى

الهواء حتى أعد له فنجان قهوة. عندما عدت كان بكاؤه قد تحول إلى نشيج مكتوم يداريه ـ بدون جدوى ـ بكلتا يديه.

قال إنه نزل فى هذه الإجازة بناء على طلب زوجته ، عندما حضرت عرفت أن ابنى الأكبر ـ ثلاث وعشرون سنة ـ يطالبنى ويطالب أمه بنصيبه الشرعى فى الميراث، يريد أن يعرف ما عندنا ـ بالضبط ـ ويأخذ نصيبه الشرعى فيه، عندما واجهته تطاول علىَّ وقال .. إن لم يحصل على ما يريد سيجعل حياتنا جحيما .. سيهدم البيت على من فيه. هو فى السنة النهائية فى كلية الطب، ابنى الكبير، يريد أن يبدأ حياته بعيدا عنا، هذا حقه، ألم أذهب أنا إلى هناك «علشان» الأولاد ومستقبلهم، هذا مستقبلهم، قاطع أمه، وخاصمنى، صار يرسل إلىَّ خطابات تهديد، يهددنى بالذبح .. أو بحرق الشقة، أمه تخاف أن تبقى وحدها معه.

أخذ الدكتور عبد الصبور يردد: «ابنى .. يا مدام.. ابنى يا دكتورة» فى لوعة وألم وكأنه حيوان ذبيح، ظللت واقفة إلى جواره.. أتسند، أنا الأخرى عليه، حتى هدأ النشيج وراح

يدمدم بأشياء لا أسمعها، ثم دخل فى إغفاءة وتعالى صوت تنفسه.

انتابنى فزع وغثيان شديدان، وظلت الرغبة فى القىء تلازمنى طوال الليل، عندما لاحظ منير ما أنا فيه قال : «لازم حامل» فأفرغت ما فى جوفى بالفعل.

ظللت حكاية الدكتور عبد الصبور وابنه تطاردنى وكأنها الفزع الأكبر ، تظهر وتختفى فى مجملها وتفصيلاتها ، تدخل فى تركـــيب يومى، وتطاردنى مع أولادى أو فى فراشى.

«عرفت بعد عام أن الدكتور مات بأزمة قلبية مفاجئة، وأن ابنه خرج من كلية الطب ليدخل مصحة عقلية».





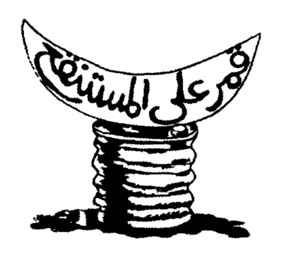
بعد أن فرغنا ـ أنا وهانى ـ من جنس متعمد ممدود، أعطانى ظهره وراح فى إغفاءة، عدت إلى مراقبة الغرفة فى ضوئها الشاحب. استيقظ فى الظلام عقلى، كأننى عشت هذه اللحظة من قبل بنفس هذه الأشياء، والمشاعر، والتفاصيل، فى جسدى خدر وإرهاق ، وفى ذهنى يقظة كاملة ووعى حارق، كرهت نفسى وما أنا فيه، لماذا دائما أريد أن أتعلق برقبة رجل.



شعرت بالذنب والتقصير ، وعدمت الفرح، لماذا لم يعطنى القرب منك ما أبحث عنه من راحة أو فرح حتى ولو للحظة واحدة. هل هو الجنس؟ هل صرت عجوزا ضعيفة.. باردة.. عاجزة عن إرضاء رجل أو حتى إرضاء نفسى.

كدت أختنق وأنا أراقب تنفسه الذى بدأ ينتظم، أكاد أقسم أننى عشت هذه اللحظات من قبل، وحتى لا يتجمد زمنى ويثبت هذا الشعور إلى الأبد. نفضت الغطاء عن جسدى العارى واندفعت أقف تحت الماء.

بدلا من أن أغنى تحت الماء المنهمر الوفير رحت أسأل نفسى: هل فعل الحب اعتداء أن امتلاك.. أم هو بحث عن مطلق مستحيل؟





فـــى الخـارج كانت مـدينة «مطروح» امرأة راقـدة فى فراش مـنكوش بعد حب لايشبـع ولا يروى، منتهكة وغاضبة، «الكورنيش» وحـده مـضىء ولامـع، وباقى الشـوارع فظيـعـة قذرة مليئة بالحفر والمطبات.

كنت قـد أيقظت «هانى» بعـد أن مكثت وحـدى أكثـر من ساعة، شربت كـأسـا وحدى، ودخنت سيجـارة من سجـائره وحدى، نظرت من النافذة حدقت فى ظلام الحـديقة وسكون

الفندق كلما تحرك فى الفراش أحسبه استيقظ يبدو أنه يحلم، قلق وغير مرتاح هو الآخر.

أيقظته، وضعته تحت الماء، طلبت منه أن يتحرك بسرعة قبل أن يكشف ضوء النهار ليلتنا المسروقة.

لم يعد عندنا ما يقال، فى جسدى إرهاق، وفى عقلى غباء مصمت بليد ، لا أدرى لماذا ترك الكورنيش واخترق الشوارع الجانبية، قال يريد أن يطيل بقاءنا معا، ضحكت.. أدار «الراديو» على برنامج غنائى قديم، استمعت إليه وأنا صامتة، لم أعد أعرف من أنا ، اختلط علىَّ الزمان والمكان.

عندما توقف أمام مدخل العمارة، كان شبه نائم، حذرته من طريق العودة، وضغطت على يده، طلبت منه أن يتصل آخر النهار، مدخل العمارة رخامى، خال، مضىء.

لا أدرى لماذا أصبحت الآن أخاف من مداخل العمارات، أشعر أنها مكان صالح لارتكاب جريمة ما، مكان يستدعى فضيحة ما، زمان وأنا طفلة كنت أتعلم الرقص فى مدخل عمارتنا بمصر الجديدة، استمعت إلى صدى خطواتى على الرخام.

انتظرت أن ينفتح باب شقة، أو تطل عيون متلصصة، دخلت الشقة، كما يدخل الأزواج السكارى فى رسوم الكاريكاتير، كانت نجية قد أضاءت نورا جانبيا خافتا.

جلست نائمة فى مقعد كبير، أعدت أمامها ـ لى ـ صينية مغطاة: كوب عصير برتقال، وعلبة زبادى، وفنجان من القهوة السوداء.

جلست أمامها حائرة، كأن شيئا لا أعرف ما هو قد فقد منى، تراكم على الإرهاق الجسدى والضيق، وأحسست أننى كومة من الغسيل القذر، ماذا أفعل بنفسى، ولماذا يجب أن

أربط نفسى برجل ، أتعلق فى رقبته، أبحث عن معنى لأيامى عنده، «نجـيـة» هـذه لم تعـرف أى رجل بعـد أن هربت من زوجها ، «لم أعد أشتهيهم، ولا أطيق رائحتـهم».. لو لم تكن هذه المرأة موجـودة فى حـيـاتى لمزقت مـلابسى واقـتـرفت الجنون، هل أصبحت هى محور العالم، كما كان عزيز. لها ذلك الحضـور الإنسـانى، حـتى وهى جـالسـة هكذا كـومـة سوداء، نصف نائمة.





مــــات عبد الناصر فى منتصف رحلتى الإنجليزية، أقمنا له نحن المصريين هناك مأتما فى كل بيت، وفى كل ليلة، تضاعف إحساسى بالوحدة والغربة، لم أكن من عشاق الرجل المتعصبين، ولكنى كنت أحب كبرياءه، ونظافته، وحضوره الطاغى الذى يربط الوطن والناس فى حركة لها معنى.

عندما مات شعرت بأن حبالا قوية كانت تربطني بالبلد تقطعت، خاصة بعد العواصف التى هبت ، وغيرت من كل شيء، تغيرت كل اتجاهات الريح.

مصر التى عدت إليها لم تعد مصر التى غادرتها ، أشياء غريبة وقوية انطلقت من الحوارى والشوارع والبيوت، لكى تمسح كل شيء، وتغير كل شيء، ذلك القرار الجماعى الذى اتخذته الأمة كلها بأن تهجر البلد، وتهاجر، وتذهب إلى بلاد النفط تبحث عن المال، أو عن الحل، أو تلقى بنفسها فى بحار الضياع، بعيدا عن الفقر والزحام والتراب، بعيدا عن المأساة، عن العشيقة التى خانت والحبيبة التى تحولت إلى بغى.

عندما عدت وجدت أبى قد استعاد بعضا من عافيته فيما يشبه المعجزة، صار بإمكانه أن يخطو داخل المنزل وحده،

وأن يحرك يده اليمنى التى كان الشلل قد ضربها، عاد يروى بنفسه نباتات الظل التى أكرهها، يحصل لها على أنواع جديدة من السماد، كأنه يحقنها بالهرمونات صارت نباتاته تخنقنى عندما أدخل إلى الشقة، وتخيفنى عندما أراها تتحرك ليلا تحت أضواء الطريق.

حدث له هو أيضا شىء غريب، أخذ يتابع الأخبار فى الجرائد، والمال، والاقتصاد ويدرس أسعار الإسترلينى، والدولار، بشغف واهتمام كأنه من كبار المستثمرين.

عندما تأتى «نورا» أختى وزوجها التاجر الخليجى كان يبدو فى أحسن حالاته، لا يكف عن السؤال عن الأحوال المادية، وتقديم الاستشارات المالية المضحكة.

حلت شهوته الغريبة للمال حتى بمجرد الحديث عنه محل

كل ما كان فى نفسه من اهتمامات بالفنون أو بالعمارة أو أبيات الشعر القديمة، ما حدث له كان يؤلمنى يزعجنى كأننى أراقب إنسانا يتحول إلى قرد.

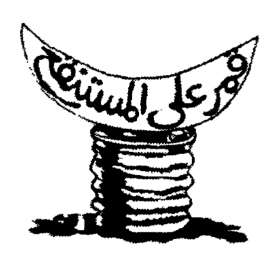
قابلت زوجى المرعب منير فكـــــار فى يـــــوم من تلك الأيام الغريبة التى كان السادات يقوم فيها بصدمة من صدماته الكهربائية: طرد خبراء، أو جملة اعتقالات، أو خطبة من خطبه العصماء المضحكة، لم أعد أذكر.. قابلته فى الجامعة، كان قد جاء فى إجازة من الإعارة، أخذ يقلد السادات وأضحكنى كثيرا حتى دمعت عيناى، أغلق باب الغرفة وأخذ يقلد صوته، وحركاته، ويسمعنا بعض الأبيات التى قالها «نجم» ويغنيها الشيخ إمام ، يومها خرجنا معا، وحدثنى عن نفسه كم كنت حمقاء وغبية عندما دخلت بقدمىّ إلى هذا المستنقع.

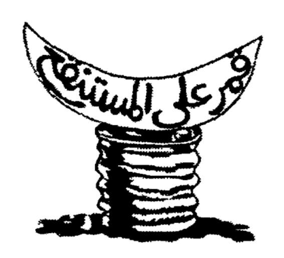
اســتبدلت بحار حريتى بمســـتنقع الطين هذا، الذى لم أخـرج منه إلا بعـد عــشـر سـنوات، أحـمل على كـتـفى أولادى ، وقلبا لم يعد يصلح لشىء، بعد شهور من التفكير والمطاردة ، والحسابات المشتركة، واستقطار حب مصنوع مجهد.

استسلمت ، أخذته من يده لكى يقابل أبى، رغم أن هذا لم يعد ضروريا، فقد كنا قد اتخذنا القرار، أبى كان قد دخل إلى حالته الاستثمارية الانفتاحية، وقاس الدكتور منير بكل المقاييس الجديدة، وأبدى حماسا غير عادى له، لحد أننى خشيت أن يمسك به ويزوجنى له قبل أن يذهب أو أن يطلب منه أن يبحث له عن عقد عمل.

أبى.. أبى.. منذ طفولتى ، وأنا أحبك وأكرهك فى نفس

الوقت، أحببت آفاق الحلم الذى زرعته فى نفسى، كرهت ضعفك الذى ـ دائما ـ ما تحسن إخفاءه تحت قرارات تبدو جريئة وديكتاتورية، كرهت أنانيتك، واستعمالك لنا، أمى وأنا وأخواتى، كأننا عوامل مساعدة أو أشياء فى المحيط الذى تتحرك فيه، أظن أن عدم ثقتى فى نفسى وخوفى المزمن واكتئابى المتردد كلها بنور زرعها شعورى ـ الدائم ـ بالخوف من تقلبات مزاجك، وحياتك الباردة الخالية من التحقيق.





تـــركـــت «نجـيـــة» تنام فى الصـــالة، ودخلت إلى غرفتى.. فتحت النافذتين، أخذت أراقب الليل ينحسر تاركا فى الشارع بقايا أضواء وأصواتا متناثرة هنا وهناك .

لم يعد النوم ممكنا، سـأمضى يومى التالى فى السرير مدعية التعب متصنعة الصداع والإرهاق، بينما حقيقة الأمر أن الليلة تركتنى خالية من أى قطرة من الحماس أو الرغبة فى الحـيـاة.. أعرف تلك الأيام، وتلك الدوائر المفرغة من

الأفكار السوداء التى تفضى الواحدة منها إلى الأخرى، صانعة حصارا جهنميا حول أركان الكون الأربعة، ليصبح الوجود أضيق من خرم الإبرة، أعرف تلك الأيام، وأترقب قدومها كأنها اللذة الوحيدة الحارقة التى بقيت لى.

رقدت فى سريرى المرتب أراقب، بعيون مقروحة، الشفق الأحمر يختلط بأنوار «الفلورسنت» فيسد على النوافذ.





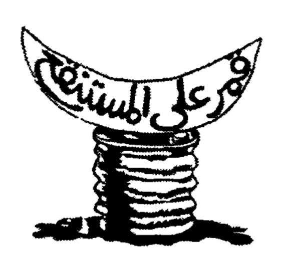
أعتقد أن كل غرائزى، وأحاسيسى الجنسية، تفتحت على يد خادمتنا الطويلة العفية السمراء «جازية» .. تتناول جسدى الصغير بيديها كأننى عروس من الكاوتش، عندما أحاول أن أصيح أو أصرخ من اللذة أو الألم، لست أدرى، تضع يدها على فمى، وتقول «عضى .. ولا تصرخى»، وكنت أفعل حتى تصرخ هى فتدفعنى وتضربنى، ثم تعاود الكرة مرة أخرى ، تختلط ـ فى

عمرى كله.. لسبب لا أدريه ــ لذتى بألم وندم لا أعرف كيف أصرفه.

بينى وبين «جازية» دائما فضيحة دفينة. تعاملنى أمام أمى وأخوتى على أننى سيدتها الصغيرة، وتخصنى بمعاملة أكثر رسمية من الجميع، وعندما نختلى فى الغرفة، ودائما أمام المرآة الكبيرة، تخلع عنى ملابسى، وتتجرد هى من ملابسها الداخلية القذرة ذات الرائحة النفاذة، وتحدثنى فى صوت يشبه الفحيح عن المرأة والرجل، وعن المناطق التى يجب أن «تقرص هكذا»، والتى يجب أن «تعض هكذا» ضبطتنا أمى يوما أمام المرآة الكبيرة ، جازية تشرح لى كيف أغطى صدرى النابت الصغير بشعرى الذى أحل ضفائره، وأترك «عريسى» يدلكه لى هكذا.. صرخت «جازية»، وبكت لساعات طويلة عندما ضربتها أمى بشبشب، أخذت تردد أنها كانت تعلمنى كيف أمشط شعرى الخشن

إلى الأمام، أما أنا فأغلقت على نفسى غرفتى وبقيت لأيام مرعوبة خائفة مما فعلته، مما فهمته ، ومما لم أفهمه.

بعد أسبوع أو أكثر طردت أمى «جازية» لأسباب مختلفة، وقع ظلم مــاحق على لذتى المؤلمة، ولم يبق إلا أثر خــالد لفضيحة مدفونة.





نجيـة لم تسـتيقظ مبكرة بالقصد، لكى تترك فرصة «للمياء» لتأتى إلى فراشى، وتحاول مداعبتى وتدليلى ، هى تعرف أن حضن ابنتى ينعشنى ويغذينى.

هى الدواء الوحيد لتلك الليالى التى أصبحت حتى «نجية» تعرف كم صارت بالنسبة لى محبطة وخالية من السعادة.

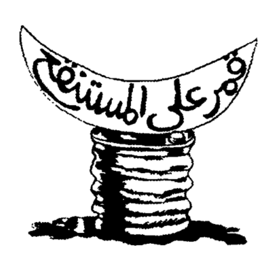


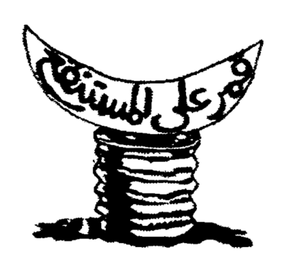
عندما جاءت لمياء أخيرا وألقت بنفسها إلى جوارى تصنع ضوضاء وتلقى بالأسئلة كأنها طلقات الرصاص، لماذا النوافذ مفتوحة هكذا، لماذا السرير مرتب، لماذا عيناى حمراوان؟.

ألم أنم دقيقة واحدة؟ أين ذهبت؟ وماذا فعلت؟ متى عدت ليلا.. وأين ذهبت أنا وهانى؟

وأنا مجهدة مخنوقة كان علىَّ أن أجيب عن كل هذه الأسئلة، ألا أكذب، ألا أقول كل الصدق، أن أحافظ أمامها على صورة متوهمة لأم عملية مشغولة، نصف جادة، لا تدعى الفضيلة، ولا تعلن الانحلال ، تدور فى دوائر مرتبكة من أحكام أخلاقية مزيفة وخانقة. من عينيها، ونظرات المكر والإشفاق المختلطة بالفضول الجارف، كنت أشعر أنها فى حاجة إلى مصارحة ومكاشفة مستحيلة، هى بالقطع تعرف كل شىء.

حاولت أن آخذها فى حضنى، وأن أدفعها مرة أخرى إلى النوم بعد أن أغلقنا النوافذ لمنع ضوء النهار اللاسع والضوضاء، والذباب اللزج.





أيـــن اختـفت عـائلتى، وأصـحـابـى، وبلدى ، وكل مـا كنت أحلم به؟. هل ابتلعنا حوت عملاق ، ونحن نعيش ـ الآن جـمـيـعـا ـ فى بطنه نضـرب فى بـحـر الظلمـات؟ أخى أمين الطبيب ـ صـديقى ـ الذى كان يتـحـدث مـعـى أنا وعزيز عن طب الريف، وخدمة الفقراء، وتبسيط العلاج، والمصـاريف، وعلاج البلهارسيا، وفقر الدم.. متى وكيف أنسحب؟ كيف أخـذ الجنسيـة الكندية، وأنجب أولادا شـقـرا لا يتـحـدثون



العـربيـة ؟ يطلبنى على التليـفـون مـرة كل عـام، يســأل عن أحـوالى فـى خطاب نصـفـه اسـتـفـسـارات وطلبـات، أخـتـى الصـغيرة نورا ربيتـها وحـميتـها - ابنتـى تكاد - تصـغرنى بأكثر من خـمس سنوات، كيف ضـاعت ؟ خطفـها ذلك الغـول وصنـع من بقـاياها كائنا آخر أكاد لا أعرفه، لا أصـدق أنـها «نورا» أخـتـى، لا فى الملابس، ولا فـى الصـوت أو الماكـيـاچ، ناهـيك عن الأخـلاق، والسلوك المزيف الكاذب المدعـى حـتـى النخـا ع، بالنسـبة لى صـارت مثل «مـصـاصـة القـصـب» امـرأة مـسـحـوقـة أمـام رجل غـبى غنى يتـاجـر فـيـهـا، ويكسب من ورائها، ويمكن أن يبيعها غدا لأعلى سعر، متى حدث لها كل هذا؟ ولماذا حدث؟

حدثت لى أشـياء كثيرة، ولكن كأن شيئا لم يحدث، خـالية فـارغة وحـيدة، كـأننى أرقـد عند حـافـة العـالم بلا أرض ولا جذور .

أفظع ما حدث حدث «لعزة البارودى» «صديقتى، صديقة الصبا والشباب، والحب البكر، وليالى السهر والقمر والأحلام، رأيتها فى «سوبر ماركت» فى الخليج كومة من السواد منقبة حتى أطراف أصابعها، عرفتها من صوتها - الذى هو عورة بمعنى من المعانى التى يطبقون بها على أنفاسنا - عندما خلعت النقاب، وجلسنا قلقتين على مقعدين متقابلين فى مدخل شقتها، كانت خائفة من قدوم زوجها الذى لا يمكن أن يسمح لأمثالى بدخول بيته، هو مسئول عن عمل إسلامى كبير وخطير، كان وجهها أصفر شاحبا سحبت منه الحياة، تهدلت الملامح، ولمعت عيناها ببريق كالجنون، لم أع من كلماتها سوى كلمات الجحيم، والحريق، والعذاب، بحثت فى كيانها أو كلامها عن ضحكة أو ابتسامة أو نسمة حب أو ود قديم، لم أجد شيئا، كل شئ حولها أسود محترق، كأنها تعيش فى دار خشبية تفحمت فى

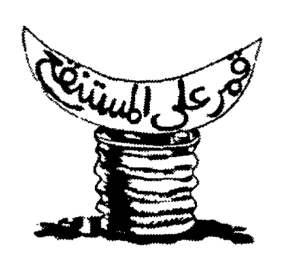
حـريق قـديم، حـملت جـثـتـهـا على قلبى، وسـكن مـعـهـا سـؤال صار لا يفارقنى : هل أنا كافرة، هل سأسكن إلى الأبد فى قـا ع الجـحـيم؟ صـرت أخـاف من دينهم هذا الذى يخلقونه كأننى أخاف من مرض عقلى وبائى ليس له علاج .

صار الناس حولى جزرا مستقلة، أشلاء عالم - كان - وانفجر ، تحولت فيه اللغة إلى عواء، والمشاعر إلى شهوات عاجزة حمقاء .. وأنا وحيدة صريعة غبائى وقلة حيلتى، وتمردى الذى أراه، وقد شارفت الخمس ... يتحول إلى ذرات تراب .

كل هذا الإحباط والسواد يتراكم علىَّ، لأننى لم أعرف أن أنام جيدا مع رجل نصف سكران .. لا أحبه ولا يحبنى .

حاولت أن أسكت هذا الصوت، وهذه الأفكار، ولكننى كنت كمن يسبح فى مستنقع لزج من الغباء، تمسكت أكثر بحضن ابنتى التى نامت، هى ملاذى الوحيد، وضوء النهار الغازى يهزم مرة أخرى ظلام الغرفة المصنوع .





هـــل أظل إلى الأبد أجلد نفسى لأننى تزوجت منير فكار، السنوات العشر التى أمضيتها زوجة له، أنام فى فراشه، يتناول جسدى وقت يشاء، ويطلق علىَّ ما يشاء من أسماء وصفات أراها الآن بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات أخرى على الطلاق كأنها سنوات أمضيتها فى قاع الجحيم فى بيت دعارة، تخصص فى جلد وإذلال النساء، صمد جسدى، ولكن كيف صمدت روحى، وكيف التأم ما

أصابها من جروح؟ هذه معجزتي، ومعدني الصلب الذى - أحيانا - أفخر به .

وجدت نفسى وحيدة فقيرة بعد أن عدت من انجلترا . فقيرة فعلا ليس لى سوى مرتب الجامعة الذى يضيع نصفه تقريبا فى المواصلات بين مصر الجديدة والجامعة، مع الفقر الذى عرفت كيف أتعامل معه كان هناك الخواء، أسمع الريح تصفر فى داخلى .. بعد محنة عزيز لم يكن سهلا أن يدخل أحد إلى قلبى وحياتى وجسدى، أراقب الرجال عن بعد، أعقد مقارنات دون أن أدرى، أغلق حتى الأبواب التى تبدو مفتوحة، مع حالة اليأس المبكر هذه، كان هناك ذلك الذى يحدث حولى «المولد كله قد انفض»، ذهب كلٌ إلى حال سبيله، الموجودون على الساحة حولى فئران مذعورة هربت من سفينة غارقة، تجرى فى كل اتجاه وراء أشياء أهمها النقود، والبضائع المستوردة، وكل ما هو ساقط مبتذل من

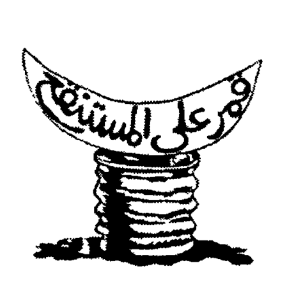
الفنون، والأغانى، والأفكار، ينتابنى دوار مستمر فأخرج فى جولات سير طويلة على الأقدام، أسير خلال الأحياء العشوائية الجديدة، غالبا ما أضل الطريق وأنا مستغرقة فى مراقبة الوجوه التى اكتسبت فجأة جهامة وقسوة لا يعرف أحد مصدرها، هل ترجع إلى الفقر المتصاعد؟ أم إلى تفكك كل الروابط، وسقوط كل القيم، رائحة الأتوبيسات العامة لا تطاق، والمعاملة فى «الميكروباصات» غير إنسانية، وسائقو التاكسى نهمون وبلا ضوابط أو أخلاق، أما السير على الأقدام فهو محفوف بالمخاطر .. من كل هذه الثغرات دخل منير فكارْ إلى حياتى وتربع على عرش الأطلال والخرائب، حسبت نفسى من «الشطار» وحسبت أمورى بدقة بدت لى مقنعة، تبادلنا ما تصورنا أنه «صراحة» فإذا به، من ناحيته، خبث مزمن قديم، ومن ناحيتى سذاجة وانزلاق إلى مستنقع الأنانية، فى ليالىَّ الأولى معه لم أشعر كيف أفقد بسرعة كل

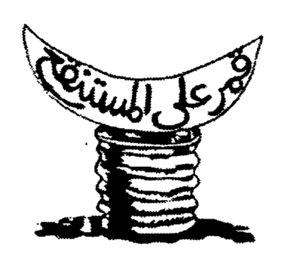
ما فى نفسى من طهارة وبراءة، أفقد اهتمامى بكل شىء خارج ذاتى، يتصاعد المشروع الذى بدأنا نصنعه معا، الاستمرار فى الإعارة بأى ثمن هو لب المشروع المؤامرة، أنا جزء ضرورى مكمل، وضمان أكيد لزيادة العائد .

لم يكن منير يتورع عن أن يستغل أى شئ ويستعمله لكى يقنعنى ويقنع نفسه. الزواج، ثم السفر، ثم الصمود هناك، استعمل كل شئ، أفكاره اليسارية القديمة، ومحاولاته مع الكتابة، وفن القصة، والتفرغ فى النهاية لحياة البحث فى التراث والكتابة . حتى قصة «رقصة الديك» التى كان يحاول كتابتها أحيانا كقصة، وأحيانا قصيدة أو مسرحية، ويسميها «كنزى الفنى» .. لم تكن فى الحقيقة سوى صفحة مزيفة من تاريخ حياته، اصطنع لها تفاصيل ، وأخفى تفاصيل، لكى يدارى الحقيقة الوحيدة التى سيطرت على

روحـه وحـيـاتـه، لن يسـد فـراغ هـذه الروح، ولن يسـكت هذا العـواء الداخلى إلا بالنقـود والأشـيـاء الثـمـينة الغـاليـة التى صار يعبدها من دون الله .

تركت أرضى، ووقفت معه على أرضه فغرقت حتى شعر رأسى فى مستنقع الغباء والأنانية والنفط .



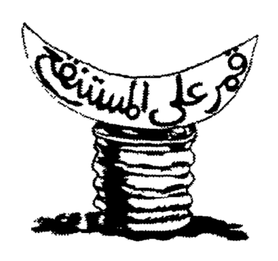


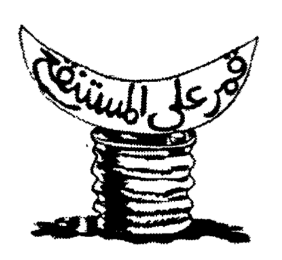
ألقـــى «تامر» بنفسه فوقنا فى السرير، لم يسأل أسئلة أختـه، ولكنه أخذ يهزنى، ويدير وجـهى ناحيتـه لكى أسـمع تفاصيل ما حدث فى مدينة الملاهـى، لم ينقذنى سـوى صـوت «نجيـة» الذى أخذ يدعوهمـا للشـاى والإفطار، ودفـعـتنى أنا دفعا لحمام ساخن جديد، خـرجت من الحمام، وأنا أشـعر أننى كيس رمل فارغ، أدور فى الغرفـة التى أعادت نجيـة ترتيبها، أنقل الأشياء من موضـعها، وأعيد وضـعها فيها من

جديد، أقلب الملابس القليلة التى صحبتها معى، أتأملها، ثم ألقى بها فى غضب.

أخيرا امتدت يدى المرتعشة إليها، أخرجت علبة الحبوب المهدئة، أخذت حبة لكى أنام، وأنا أسقط فى البرزخ بين الحياة والموت، شعرت بـ «نجية» تضع على جسدى المسجى باردا فاقدا للحياة ملاءة خفيفة، لامست جبهتى وكتفى وقالت هامسة :

- يا حبيبتى .. يا أختى .. حمد الله على السلامة .



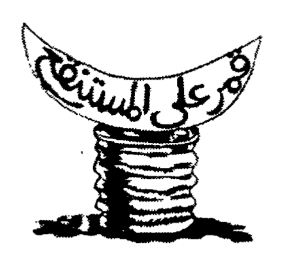


ملعون النوم بالحبوب المهدئة، كأن جلد الرأس وحده وسطح العقل ينام، بينما تغلى العروق ويفور الدم مختلطا بالذكريات والصور كلها تلدغ وتضرب فى الأحشاء .

تنهدم الخطوط التى صنعتها - بصعوبة - لنفسى أحدد بها جسدى ووجودى، أنفرط أنا فى مكانى : جسد بلا شكل، وجه بلا ملامح، كومة من غسيل قذر، أقاوم قوى

مجهولة لكى أكون، يقود الوعى إلى غباء محض، وتسقط الأفكار أجنة مجهضة، تسكن هزيمة مريرة فى الروح، تنهار سدود الزمن، فيجتاح ماض كثيف ثقيل لحظتى وحاضرى والآن، دافعا بى كجثمان نافق إلى حافة الكون وأطراف الوجود. ملعون ذلك النوم المصنوع، ملعون ذلك اليوم الذى - كأننى - أدخله من نهايته، أتقلب وحدى فى الفراش الحار كأننى محمومة، أصوات الخارج - الشقة والشارع وصوت البحر البعيد - ليست حقيقية، أغلق عيونى المجهدة فتندلع الصور، تزحم الغرفة التى تخترقها - وتخترقنى - رماح النور ، تتصاعد بسرعة، صانعة ضحى غريبا وظهيرة أغرب، أمضيهما أتقلب فى فراشى، يتساقط داخل رأسى مزيد من الصداع .





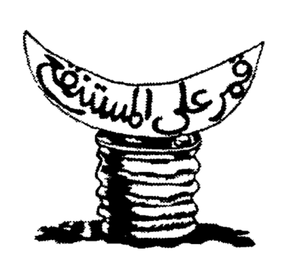
غـل حار يتصاعد فى جسدى، لا تقدر امرأة أن تنسى أن نساء الأرض - كلهن - خلقن طاهرات وأبكارا، وأن الحسن كان رياضا خلابة، وأن الحب كان أخضر مرويا كحقل برسيم فى ندى الفجر، لكن كل شئ يمر بى مثل الأيام، مرت بى الأيام، مرت بصدرى وبطنى وجسدى، من يوقظنى .. من يوقظ الأحلام؟

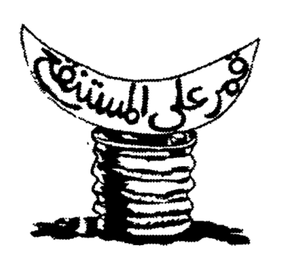
عـزيز - حـبـيـبى - يقف هـنـاك فى «المـوت» على شاطئه الغامض ينادينى، ينادى روحى وجسدى والمستحيل، أمـد له - وأنا راقـدة - رأسى ورقـبـتى وصـدرى، ألم يخترق الكتف، أريد أن أسكن على بقعة معينة فى صدره، أريد أن أضع رأسى على وسادتى اللينة، أن يزورنى نعاس إلى جواره فى النور، أسمعه يقول لى : «ادخلنى ياحبيبى إلى جنتك، هناك أرى حبى مـترعا مـرويا كـحـقل برسـيم أخضر» .

أدخل أنا وعزيز إلى كنيسة قديمة خالية فى وسط البلد، مظلمة رطبة فى عز النهار، شموع كثيفة تبعث نورا حانيا، ينعكس على صلبـان وصـينيـة من فـضـة قـديمة، جسـدى ينتفض من البرودة المفاجئة، والرائحة الكثيفة والخشوع، أجلس صـامـتـة إلى جـواره، أتطلع إلى بقـع الضـوء النافـذة

خلال الزجاج الملون، يضم كتفى إليه، يسكن رأسى عند بقعة معينة من صدره .

لكن كل ما فى روحى الآن هش غريب، أنظر إلى فراغ الغرفة بعيون متعبة، غائمة، خائفة من لا شىء، أحب، أبوح، لا أقدر، أصرخ، لا يخرج الصوت، لا أسمعه، أعاود الصراخ، أسمع الصوت فى بطنى، «مد حبيبى يده من كوة الباب أنت عليه أحشائى».





طعـــم ملح فى فـمى، خيـوط عنكبـوت حولى، الشـقة ليـست شـقـتى، البلد ليس بلدى، الرجل منيـر - زوجى - يشـــغـل الهـواء الذى أتنفســـه. يتـحـدث، أسـمع صـوته ولا أعى مـا يقــول، تزداد وحـدتى عندمـا يتكلم، يعـيـــش عـالما لا أصـــدقه، أعـيـــش ولا أصـدق أننـــى مـوجـــودة فيه .

فى الصبـاح أجد نفســـى فى شـــقـة الغـربـة وحيـدة، وحـــدة فى قلـــب وحــــدة فــى مـحـيط مـن غـربة وغبـاء،

الهلع يسكن قلبى والسؤال الأبدى يتصاعد : ماذا أفعل هنا؟ ومن هؤلاء؟

أشعر به فوق جسدى كأنه يضربنى ليلا، آثار الجنس معه أصبحت لا تطاق، أعرف أنه يستعد لليلة فى الفراش مبكرا، عندما ألمحه يتناول خلسة حبوبه المنشطة بعد الشاى المتأخر بنفسه، عيونه تخلع عنى ثيابى فى الضوء، اليوم – ككل يوم – فارغ بيننا، ردودى عليه تأتى متأخرة، كأننى فى مكانٍ آخر، أستجمع قواى خائفة أتمنى أن يحدث شىء جديد ، لكنها حركات كل ليلة، لمسات كل ليلة، كلمات كل ليلة، وأخيرا ذلك العنف المؤلم المتصاعد الذى يتركنى أغرق فى مستنقع لزج، وحيدة أنام كما أستيقظ وحيدة، تعلمت البقاء وحدى طويلا، جالسة فى الحمام لا أفعل شيئا، أضمن هناك ألا يخترقنى، ألا يتناول جسدي وهو يمضغ الطعام، يهزمنى مجددا كلما نتقارب، أو نتكلم، وضوح مقاصده وأغراضه وحركاته لا يجعله إنسانا، ماكينة بشعة للأكل والجنس وجمع النقود، يزيحنى من طريقه كى لا

يتأخر دقيقة واحدة أسأل نفسى كيف يرانى ولا أجد جدوى من السؤال.

كل الأقنعة سقطت، عاريا تحت جلبابه الأبيض، لا يهمه إن كان قذرا أو نظيفا، يغلق على نفسه حجرة المكتب، يأخذ معه طبقا من الحلوى الرخيصة التى يحبها، وكوبا من الشاى الغامق، أسمعه يخاطب نفسه بصوت عالٍ كأنه يحفظ نصوصا، يغيب ساعة أو ساعتين، يخرج منتصرا يحمل كومة أوراق، يلقى بها أمامى، ويقول : خمسمائة دولار ياهانم .. مقال رهيب عن التصوف الإسلامى، طبعا لن تقرئيه، أحاول أن أقرأ، تجرى عيونى على ما جمع من مقتطفات قديمة، جواهر فى كوم زبالة، كذاب مغرور بلا صدق، ولا مشاعر، نفس الكلام الممضوغ بلا أفق، بلا حلم، بلا مغامرة، أرى فى الأوراق - التى يكتبها بخط واضح سليط - فراغ نفسه، ودناءة مشروعه الأجوف الذى جرنى إليه، مقال كل يوم أو يومين من نفس النوع، لهذه المجلة أو تلك النشرة، تصدرها

حكومات أو جامعات، أوراق لامعة غالية، وثائق تعلن خيانة الفكر، واحتراف الكذب والإدعاء، كتابة هدفها إبقاء الحال على ما هو عليه، كتابة تعلن انتحار المستقبل، وهو يغرف منها النقود ويقول إنه يكدح، وإنه يكتب، تاجر غشاش، وأنا زوجته، صرت أخشى فضيحة ما ، كما يحدث فى الكوابيس، أن أضبط وأنا أسرق من محل، أو أضبط عارية فى طريق، نقودى التى أقبضها من الجامعة أول كل شهر، كأنها مزيفة، لا أحب رائحتها، أضعها أمامه فى الغرفة يأخذها يعدها، يعيد ترتيبها، فى الغد تختفى، أنا غارقة تماما فى المستنقع ولا جدوى من المقاومة .

تشدنى - وأنا هناك - صور بلادى، أسمع فى قلبى نشيجا ولا دموع، أصوم، أصلى أبحث داخلى عن بقايا طهارة قديمة، لا أجد سوى دمار، أسمع فى صدرى دمدمات تحدثنى عن أشياء بشعة تجتاح ناسى وبلادى، أنا المجرمة المسئولة، لا، أنا «تابع» لست الفاعل الأصلى ، مجرمة بالتبعية .. بالزواج بذلك الرباط غير المقدس، هل كل

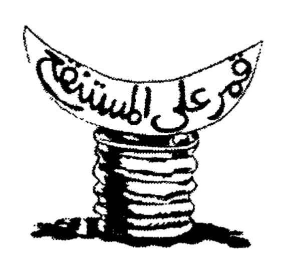
النساء هكذا .. حتى فى الجرم والذنب تابعات، أكره نفسى، جسدى، عادتى الشهرية، وصدرى ذلك المنتفخ بلا حب ولا حنان .

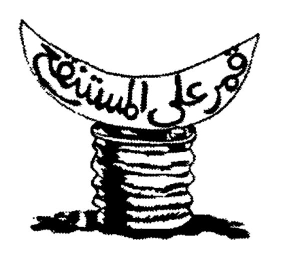
فى ليلة نادرة خرجنا معا، منير والأولاد وأنا والزملاء، أربعة أو خمسة كلهم منير أو يكادون، وزوجات ممتلئات، منفوخات، فاغرات الفم من التخمة والبلادة، أولاد كثيرون كأنهم قرود فى جبلاية، معنا طعام كثير وشراب كثير، نسير فى طريق مظلم، وسط ليل وصحراء إلى بقعة نائية غريبة على بحر ساكن أسود لا تتحرك فيه موجة ولا نسمة هواء .

هناك أخذوا جميعا يحتفلون فى صخب بفكاكهم المؤقت من الأسر الذى يعيشون فيه، احتفلوا بدس الطعام والصراخ، وأشرطة الكاسيت المصرية الجديدة، تركت أولادى وزوجى ورائى، سحبت جسدى المهزوم وروحى

المطعونة، سرت وحدى فى صحراء وحدتى، وحدى أمام البحر الأسود الساكن - وجها لوجه - فى السماء نصف قمر مخنوق يسقط ببطء فى المستنقع الذى يمتد أمامى بلا نهاية، القمر المخنوق الغارق يطاردنى مثل الكابوس، يلتف الضوء المريض والشاحب على عنقى يمنعنى من التنفس أو البكاء .

بعد أن رجعنا ناموا جميعا، وبقيت وحدى أرى القمر المخنوق يطبق على صدرى، وأنا أبلل «موكيت» الغرفة القذر بدموعى .





لا تفعل فيَّ الحبة المهدئة هذه الأفعال عادة. كأننى امرأة مغتصبة منتهكة، كل جزء فى جسدى يتألم، ربما لأننى أخذتها بعد شراب، أو بعد جنس أثارنى ولم يشبعنى، ربما لأننى صرت عجوزا بلا أمل ولا رغبة فى الحياة.

النهار يقترب من نصفه، أسمع صوت التليفزيون عاليا يذيع فيلما قديما، صمت الأولاد أمامه مقلق كأنهم - هم



أيضا - يغرقون فى نفس الفراغ الذى يبعث فى قلبى الهلع، كأنهم يحدقون فى حياتى، عيونهم - التى لا أراها - جامدة بلا رحمة، لاتعرف الصفح ولا الدموع .

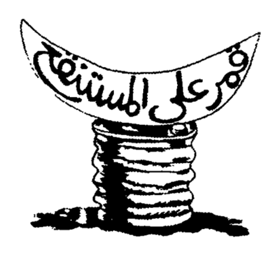
دخلت نجية على أطراف أصابعها إلى غرفتى المغلقة، غيرت هواء الغرفة ووضعت إلى جوارى كوب ماء بارد، بللت ريقى، أحسست أننى عشت هذه اللحظة من قبل، نفس الضوء، نفس الوقت، نفس المكان، ونفس هذا الكائن القريب البعيد الذى أعرفه ولا أعرفه، سقطت مرة أخرى فى هلوسة أراها تحدث أمامى .

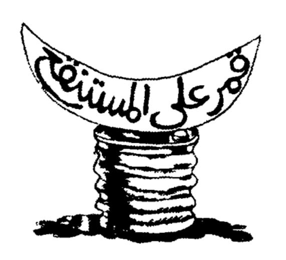
نجية تحكى لى ونحن وحدنا نجلس على صخرة قرب الهرم عن الممثلة الصغيرة التى عملت عندها قبلى بسنوات، تصفها وكأنها ابنتها، تولت كل شئ فى حياتها - كما تفعل معى وأكثر .. «حلمت أن أعيش أخدمها إلى الأبد، أحميها وأرعاها فى الغابات التى كانت فيها، تزوجت فجأة من رجل مسئول كبير فى الحكومة، مخابرات أو شغلانة غريبة كده، شغله غريب، وضيوفه أغرب، تجار أو مهربون، بعد أسابيع عرفت أن الرجل يبيع زوجته،

كرهنى عندما عرفت، بعد شهرين كانت بتشم، طردنى الرجل وهددنى، بكت هى وأنا أذهب، أنا كنت أبكى عليها بدل الدموع دما» .

انتفض جسدى، سمعت صوتى ينادى على لمياء ابنتى بلا مناسبة بصوت ملتاع يحول بينى وبينها جيوش من البشر، تسير فى جنازة بلا نعش، يحيطون بها ويمنعونها من الوصول إلىَّ، نصف جسدها عار تسيل منه الدماء .

عندما صرخت أنادى عليها، جاء جميعهم إلى السرير، الصداع يفلق رأسى وهم يرتبون كيف سيكون احتفالهم غدا بعيد ميلادى، أسلمت رأسى مرة أخرى للوسادة حزينة مقهورة، طعم الملح فى فمى، وخيوط عنكبوت تلامس وجهى .





ظلت الترتيبات تجرى فوق رأسى، و أنا أقاوم أن أصرخ فيهم، أطلب الصمت ، أطلب الحرية، أطلب أن أتنفس، انتابنى ذعر من أننى لن أنام، وأن هذه الهلوسة ستستمر وتتصاعد، امتدت يدى المرتعشة - مرة أخرى - إلى الحقيبة ودسست فى فمى حبة مهدئة جديدة.

كان ذلك فى عيد ميلاد تامر الثالث أو الرابع، استقر

كيانى كله على قرار رغبتى فى الطلاق، أصبح العداء ظاهرا بعد أن كنت أحاول أن أداريه، تولدت قوة غاضبة حتى أصبح يخاف منى حقا، ويقول أننى قد جننت، أصبحت أنا الأخرى أخاف، فقد كان يدبر لى أمرا، فجأة سقط مريضا، ربما من طعام ملوث أو توتر عصبى زائد أو من الإفراط فى تناول الحبوب المنشطة، أخذ يستعطفى ويطلب منى أن أنقذه، لا يريد أن يذهب إلى أى مستشفى، يصرخ ويتلوى من الألم، يطلب منى أن أمرضه، أن أبقى ساهرة إلى جواره، الموت يطل علىّ من رائحة فمه، يقول : اقتلينى أنت هنا أحسن، فى المستشفى سيضعوننى فى ثلاجة وبعدها يرسلوننى إلى مصر فى صندوق، تحول وهو مريض إلى طفل أحمق مذعور، يبكى وينادى على أمه، وأقاربه، وأنا جوار سريره انتابتنى نوبة غضب فمزقت بعض الأوراق النقدية الكبيرة التى كانت إلى جواره وألقيتها فى الزبالة،

أخذ ينظر إلىَّ فى ذهول ، عيونه المريضة تحدق فىَّ كأننى جنى أو شيطان، ارتفعت درجة حرارته وتصبب عرقا، كان أضعف من أن يتشاجر فنام ، بعد أن أفاق أخذ يردد كافرة كافرة.

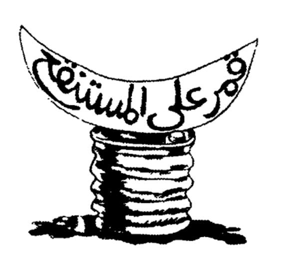




سقطت الدكتور عبد الصبور فى الطريق ميتا، بعد أن أطبقت عليه محنة ابنه الذى طلب نصيبه فى ميراث الرجل، مات بأزمة قلبية بعد أن ظلت خيالات ابنه تطارده ليلا وتمسك به نهارا، لم يعد يتكلم فى شىء ، اشتكى طلبته فى الجامعة من أنه يدخل المحاضرة ويظل صامتا يحدق فى الفراغ، أشيع أن الجامعة سوف تنهى عقده، لكن الحالة كانت تتدهور بسرعة أكثر، يرفض أن يركب السيارة، يذهب

إلى الجامعة ويعود سيرا على الأقدام فى حرارة الشوارع القاتلة، طوال الطريق كان يحدث نفسه، قبضت عليه الشرطة مرة، وحمله بعض المصريين وهو مغمى عليه إلى بيته، فى الثالثة سقط ميتا فى الطريق فى عز الظهر، كنت مع زوجته وهم ينقلون جثمانة المجمد من الثلاجة ليضعوه فى صندوق، سمعتهم يدقون المسامير فى الخشب على أرض المستشفى.

أشباح الأولاد تبتعد عنى، وهم مازالوا معى على السرير، أصواتهم ـ أيضا ـ تبتعد ، وأسقط فى نوم كأنه الإغماء.





رأيــــت أن حبى كـان وهمـا ، رأيت أن «عزيز» لم يكن له وجـود، رأيت أننى أسـيـر فى فـراغ، أغـرق فى البـحـر الأسود مع القمر المخنوق.

عزيز يقف فى نهاية شارع خال، كبير الحجم، جميلا كما لم أره من قـبل، عـيـونه تناديني، أسـيـر منومـة إليـه ، أجـده تمثالا لمسته فانهدم، جلست جنب أطلاله أبكى .

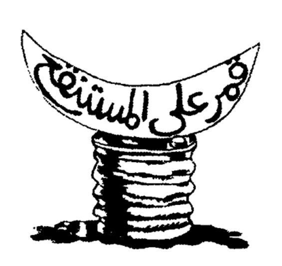
منير زوجى يقف معى على سلم قسم شرطة، الحديد فى



يدى، الصحفيون والمصورون يلتقطون لنا الصور، هو يضحك ويلوح بيديه منتصرا، العساكر يسحبون لمياء وتامر، بعيدا.

الغرفة التى كنت فيها مع هانى لها جدار من زجاج ، عيون وأنوف ملتصقة بالزجاج، من سماعة الموسيقى تخرج أصوات تصفيق وصراخ، أجرى فى الغرفة عارية، أحاول أن أسد الأصوات، وأدفع العيون، هانى يجلس فى مقعده، يشرب خمره وسجائره، يدفع رأسه إلى الخلف ويضحك، يشير إلىَّ بإصبعه ويضحك ، أنا لا أجد شيئا أستر به جسدى، أسير على أرض خشنة ساخنة، أرض محروثة بها بقايا جذور، وأحجار وقطع زجاج مكسور ، أقدامى حافية دامية، أنبش وسط ركام الأرض عن بذور كنت قد ألقيتها، لا أجد شيئا ، أصابعى أيضا دامية. فوق رأسى طيور مسرعة سوداء تنقض قرب رأسى وتهمس «بلهاء ... غبية بلهاء».

بللت شفتى من كوب الماء الذى لم يعد باردا، أصغيت فلم أسمع لأحد صوتا، كانت الشقة خالية.

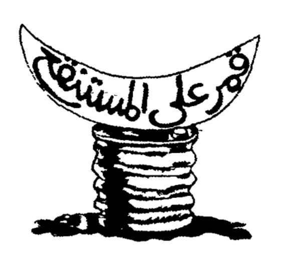




عنـــدمـــا استعدت وعيى ، غادرت الفراش بسرعة خوفا من كل ما حدث فى ذلك الكابوس الممتد، الوقت حوالى الخامسة عصرا، فى الصمت وفى الجو كله مؤامرة ضدى، ذهب الصداع وخلف مكانه حزنا وإرهاقا وغباء، وفى الصالة تعاليق وأوراق ملونا وبالونات، ورقة صغيرة من لمياء تقول : ذهبنا مع هانى جميعا نشترى أشياء.. وأشياء.. كل سنة وأنت طيبة يا جميلة.



وحــدى تحت التــعــاليق والأوراق الملونة جلست أنتظر الغروب.. وأدخن.





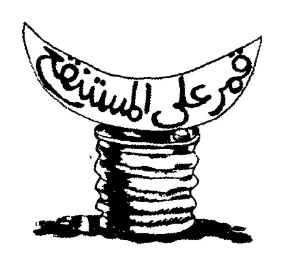
عـــادوا مـحـملين بالـهـدايا، وكنت أنا قـد اتخـذت قرارى، استـعدت خطوط جسدى الخـارجية، وقـدرتى على الحـركة بنبشـاط متعمد ، والضحك بصوت عـال من الحلق ، علب صـغيرة، وعلب كبيرة، أشـيـاء خـاصة وأشـيـاء للحفلة. «نجيـة» فى وسطهم قلقة سعيـدة لأننى اسـتـعدت ليـاقـتى وشـخـصى الصلب المتـماسك، «هانى» يقف بـعيدا ، يراقـبـهم وينتظر ردود أفـعـالى، يعاودنى منظره فى الفراش، يتصـبب

عرقا رغم التكييف، يريد أن يصل إلىَّ فلا يتسطيع، حتى الكلمات تتساقط من فمه نصف السكران، يلمع فى عينيه نهم عاجز، أدفع كل شىء جانبا وأستقبله ـ كما أفعل دائما أمام الأولاد ـ فى ود ومعزة كأنه أحد أفراد العائلة.

بعد أن وضعت علىَّ أبسط ملابسى وأكثرها حرية، شعرت أننى اندمجت تماما فى الدور الذى ألعبه، ممثلة قديرة تؤدى دورا أتقنته لعشرات الليالى، نادرا ما يواتينى هذا الشعور كأننى ألعب، يتقاطر على روحى شعور بالخفة والسعادة، قلت إننى ذاهبة أبحث عن «كوافير» وأننى أريد أن أكون وحدى لبعض الوقت، من حق امرأة مثلى تحتفل بعيد ميلادها أن تكون وحدها لبعض الوقت وهمست لـ «نجية» بأن توافينى بعد ساعتين فى «الكازينو» القريب وحدها، ووضعت فى وداعى «لهانى» مايترك لقاء الليلة

محتمــلا ، أما «تامر» و «لمياء» ، فطلبت منهمـا أن يفرغا من الترتيبــات مبكرا، وألا ينتظرانى ، وأن يضعا هداياهما تحت المخدة لكى أفتحها بعد أن ينتصف الليل، أريد أن أتولى أنا القيادة، ما أسهل أن تدور العجلة، وتنزلق الأشياء عندما أمسك بعجلة القيادة، أن أكون فوق اللحظة لا تحتها .





دخلت مسرعة إلى زحام الكورنيش، لابد أن منظرى كان مضحكا وأنا أمشى بهمة ونشاط قاصدة إلى مكان، وسط جموع المتلكئين الذين يتركون أجسادهم يدفعها لهم الآخرون ، طوال حياتى أكره هذا التنطع، غالبا ما أضبط نفسى أسير بسرعة أو أتحرك بسرعة أزيد من اللازم.

قطعت مسافة كبيرة حتى خف الزحام من حولى، ابتعدت عنى الهلاوس والمخاوف التى كانت تسكننى طوال النهار ، تنتظم مع الخطوات الثابتة خطط للعمل والقراءة ووهم قديم بممارسة كتابة ما، لم تعد شعرا أو أدبا ، شىء ما قريب من الاعتراف أو التفكير على الورق، مازال نبض الحلم قائما، يحمل معه شعورا بالتحقق يجعل الدم يسرى فى العروق، تحقق لا أدرى من حرمنى منه، من نفانى خارج ذاتى الحقيقة التى تاهت تحت ركام الأحداث والوقائع، هل صارت مضحكة ـ هى الأخرى ـ تلك الرغبة فى الكتابة؟ عذبنى طوال عمرى ذلك الفن المقبور، أذكر تلك الأوراق المتناثرة والكراسات القديمة ؟ أقلب فيها أحيانا، ثم أخشاها وأخفيها، أقول : ما فيها يهمنى وحدى، ربما لو عشت مع عزيز كنت قرأت له سطورا منها.

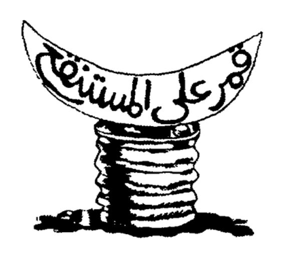
أقـــول : أتركى الأمـر كـمـا هو، ولا تفـتـحـى بوابات الجنـون لمن يمكن أن أتكلم الآن؟ من يســمعنى؟ من حقا؟ كـيف خـلا العـالـم حـولى إلى هذا الحـد؟ كل هذه الدوائر المغلقة التى يســير فيـها البشـر من الميــلاد إلى الموت دون وصل أو تـواصل، جـزر مـغلقـة منعـزلة فى بحـار من الزحـام والضـوضـاء والطمـع، يلتـقى الناس مـصـادفـة، ويفترقون حتما، ولا يتبادلون سوى المنافع والفواتير العاجلة والمؤجلة، الحـديث بينهم لم يعـد ودا وتـواصـلا، أجـهـــزة إرسال فقط، الجمل ناقصة نصفها : كده، تقريبا.. ويعنى» كنت أحب الكلمـات الواضـحـة الناصـعة ، أراها مكتوبة أو منطوقة، وأحب حركتها الداخلية وهى تصل إلى معنى يقدمه إنســان إلى آخـر كـأنه هـدية أو إشـارة حب، الآن أسـمع الحديث حولى: صـرخات استغـاثة، أو خبطات على أبواب

مغلقة، إنهم حولى جميعا يذيعون على موجة لا أستطيع التقاطها، أتمنى أحيانا لو أننى صماء، لم يعد هناك مايسمع.

وقفت أمام فندق كبير، جزيرة هو الآخر، أو مدينة صغيرة معزولة، لاعلاقة له بما حوله، به محلات وسينما ومدينة ملاه، طوابقه كثيرة جدا تختفى فى السماء، الحراس، الجرسونات فى زيهم الموحد، وحركاتهم المصطنعة كأنهم مستوردون من بلد آخر ، أكاد لا أذكر لهم ملامح، سألت أحدهم عن مكان «الكوافير» فأشار بيده إلى نهاية الممر، حيث تحتشد كمية هائلة من نباتات الظل، اقتحمت «الوكر» الغريب المكيف الهواء اخترت شابا بدا لى محايدا، وأقل إزعاجا من الأخرين، آخر ما أريده الآن هو أحاديث الصالونات اللزجة، كسوت وجهى

بقناع صامت بارد ، وقلت فى حسم: غسيل وتسريح فقط..

من فضلك بسرعة.





وجـــدت نجية تجلس وحدها على منضدة قريبة من البحر، كأنها أثر فرعونى قديم ، صامتة هادئة، أمامها كوب شاى تشرب منه على مهل، جلست وبقينا صامتتين، نحن ـ معا ـ صنعنا هذه العلاقة التى لا علاقة لها بأى شىء حولنا، معها يصبح للصمت معنى مريح، لمحت شعرى المغسول، ودارت بعينها فى وجهى، وكأنها عرفت ما أفكر فيه، وما اتخذت من قرارات بشأن الليلة، ما بيننا من فهم

أمر نادر، لا يراودنى أدنى إحساس بأننى أجلس مع دادة أو خادمة، تضحك وتقول : «علمينى القراية والكتابة، وأنا أدير بلد بحالها»، تفهم وتعرف أنها تفهم، دون غرور ولا فخر، بطريقة ما انتفى من حياتها الغرض والقصد واستغلال البشر، كأنها «مطلق» إنسان، مطلق محبة، أو بحر لانهائى جميل ، هى فى نفس سنى تقريبا، تصغرنى بعام واحد، كأن الجنس فى حياتها والرجال ذكرى قديمة، أو وهم لم يوجد قط، طعنة واحدة دامية، وتعلمت، أغلقت كل الأبواب والنوافذ، عادت عذراء، بكرا، راهبة بلا كنيسة أو دير، كائن متكامل ، ذكر وأنثى فى نفس الوقت، لكنها أنثى، امرأة جميلة مازالت، رغم الملابس والجسد المستدير، والوجه الخالى من كل شىء إلا نضارة الروح المرتاحة الطيبة، أعشق هذه المرأة، أحمد الله على أنها فى حياتى.

لم أحب أبدا الطريقة التى تتحدث بها النساء عن

تجاربهن الجنسية، مع «نجية»، لم أكن فى حاجة أصلا للحديث ، كأنها تفهم وتعرف، تقف فى مكان ما بين الغفران والتشجيع، لا تحب هانى حقا، ولا ترتاح كثيرا إليه، تتركنى أفعل ما أشاء، كأننى ابنتها ،«العاقل الرشيد»، هذا ما يحيرنى أكثر، لماذا مازلت أنا أبحث عن رجل ؟ لما أريد أن أتعلق فى رقبة رجل؟ ليس السؤال فى الجنس نفسه ـ رغم أنه جميل ـ ما لا أفهمه هو ذلك الشعور بأن الوجود دون رجل وجود ناقص، فراغ ما يجب أن يملأه أحد، كأننى لا يمكن أن أفهم وحدى، لا يمكن أن آكل وأشرب وحدى، كأن الدنيا كلها متوقفة على ذلك الرجل المختار الذى أمارس وجودى الناقص معه.

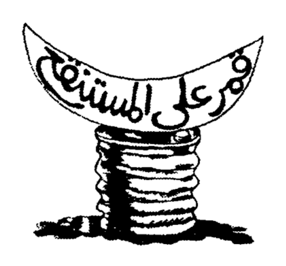
نادرا ما أتحدث معها عن علاقتى مع عزيز، عرفت منى تفاصيل التفاصيل فى علاقتى مع زوجى منير، كلما أردت أن أتخلص من غصة حكيتها لها، الليلة حدثتها عن عزيز

وعنى طويلا، وأنا أنظر إلى البحر الساكن من ورائها، كانت صامتة ذلك الصمت الذى يدفع إلى مزيد من البوح، فتحضر الذكرى صافية بلا شوائب ، كنت كأننى آرثى حصانا عربيا أصيلا لاح فى أفق حياتى ورحل، مكسورا وحيدا، الرجل الذى أشبعنى وأحبنى وعلمنى، وقبل الذروة التى أردنا أن نبلغها معا تحول إلى طفل صغير حائر جائع ، حاولت أن أعطية صدرى أن أضمه إلىَّ، لكنه «تحول وعبر» تركنى مبذولة، عطشى إلى الأبد، تنعق فى سمائى الغربان، لم أكن أبكيه أو أبكى على نفسى، فقط أتعجب كيف يخطر حتى فى أحلامى أو كوابيسى أنه لم يوجد، أو أنه كان وهما بينما أنا لا أعيش إلا بما خلفه لى من جراح.

شربت مع «نجية» شايا جميلا طويلا، لم أشربه من سنين، ثم قلت لها فجأة:

سوف أسـهر الليلة مع «هانى»، ولن أتاخر كثيرا... خذى «تاكسى» إلى البيت .. قالت : لا.. بل أسير.



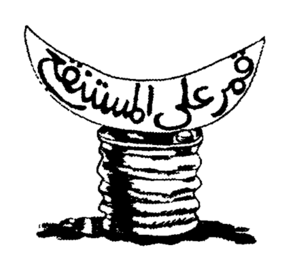


أخـــذت «تاكسى» بسرعة إلى فندق «هانى» القديم، اقتحمت الممرات الهادئة إلى حيث يقع الشاليه المنعزل البعيد، التوقيت كان ملائما، كان قد دخل قبلى بدقائق، يخلع ملابسه ويستعد للحمام، المرأة التى دخلت الآن لم تكن هى المرأة التى كانت هنا بالأمس. المكان هو الآخر كان مختلفا، لم يعد مسرحا صغيرا وزعت فيه الإضاءة لغرض فاحش، لكنه كان بيتى، مكان بحثت عنه

وهأنذا أخيرا أجـــده، تحركت بخفة عارية القدمين، دفعت به إلى الحـمـام ، و«دعكـــت» له ظهره، وجــدت له غـيارا نظيـفا، وقلت : إياك أن تشرب وحدك الليلـة، ســنشرب قليلا معا، كأننا «ناس متحضرون» أطفأت الأنوار، بعد أن أعددت له مقعدا، ولنا كأسين، وأشعلت شمعة، ناديت عليه بعد أن وضـعت على جسـدى جلبابا من جلابيبه الملونة، وجاء.. رطبا نديا تفوح منه رائحة هادئة نظيفة، كان صامتا مأخوذا بما يجرى حوله، الليلة كان له أنف جميل، وذقن مستديرة ناعمة ، عيناه فى ضوء الشمعة كانتا تحيطانى بقدر نادر من المحبة، والنداء والتشجيع، لم يكن صامتا، ولكن أنا التى كنت أتكلم، حدثته عن «الكوافير» الذى ذهبت إليه، وعن «نجية»، وعن المشوار الطويل الذى سرته على الكورنيش فى الطريق إليه ، هل كان يسمع حقا، أم أننى توهمت ذلك؟

عندمـا اقـتـربت سـاعـاتنا مـعـا على الانتـهـاء، قـال وهو يضمنى إليه من جديد : لم أشعر أبدا كما شعرت الليلة بأن هناك امـرأة تريدنى بكل هذه الحـرارة، فـقلت: يا أحـمـقى العزيز هل تظن أنك ــ وحدك ــ تريد.



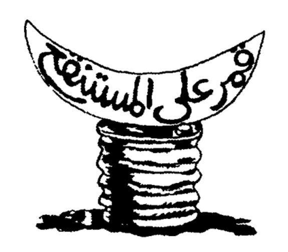


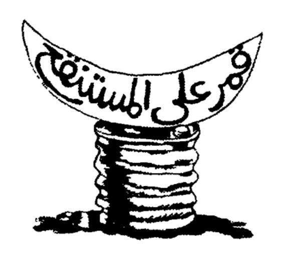
نمـــت الليلة نومـا هادئا، كـأننى أرض عطشـى نزلهـا مـاء وفير، ضـممت هدايا تامر ولمياء كطفلة تحتضن حذاء العيد، وحاولت ألا أذكر الأرقام أو عدد السنين وقلت : العمر الحـقـيـقى هـو مـا تشـعـرين بـه، وضـحكت من كل صنا ع الأكاذيب الجميلة، ورحت فى نوم عميق، فى العادة لا تكون أحلامى طويلة، ولا تفصيلية كهذا الحلم الذى شغل ليلتى هذه بأكملها، كنا فى قاعة كبيرة، وهناك احتفال راقص

وصاخب بشىء ما لا أعرفه، عدد الحاضرين كبير، وإن كان أغلبهم بلا ملامح ، بين الحين والآخر ألمح وجها كأننى أعرفه، وعندما أتقدم نحوه أكتشف أننى مخطئة. فى الحضور أيضا عدد من المشاهير، لمحت عبد الحليم حافظ، وأنيس منصور الذى وقفت أتحدث معه فى شىء من كتاباته، كان يبدو ساحرا، يتكلم كأنه يغنى، تمنيت أن أعرفه عن قرب ، تمنيت لو أننى أملك القدرة التى أجعله بها يحبنى، ويصحبنى معه فى رحلاته، لم يكن يلتفت إلى محاولاتى، ويتجاهلها ويشرح باستفاضة نظرية فلسفية لا أعرفها، وفجأة ظهر إلى جواره زوجى منير فكار فى جلبابه نصف النظيف نصف القذر، أخذ يهمس فى أذنه بكلمات لا أسمعها. لكنها بالتأكيد كلمات بذيئة عنى ، كان منير يستولى على أنيس منصور شيئا فشيئا ، فوجدت نفسى أصيح وسط الحفل: هذا الرجل طلقنى، طلقنى من مدة

طويلة، هو ليس زوجى، كان يبدو على أنيس منصور أنه لايصدقنى، ينظر إلىَّ كما لو كنت خدعته أو غررت به.

استيقظت من نومى، قلت : لابد أن أحكى هذا الحلم بالتفصيل «لنجية» وعاودت النوم الممتع من جديد.





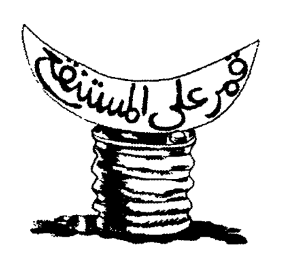
انطبـــع هذا اليوم فى ذاكرتى، لأننى استـيقظت ممتلئة، طبيعية، يخامرنى شعور بالتحقق، وبأن كل شىء على ما يرام، رغم أنهم يتحدثون كثيرا عن أحزان عيد الميلاد، والكآبة التى تجتاح النساء أمثالى عندما يجدن أنفسهن مجبرات على تذكر كم بلغن من العمر، كنت أضحك بلا سبب مع لمياء وتامر ، وهما معى فى السرير، و «نجية» تدخل وتخرج صاخبة على غير العادة، قالت وهى تعد



الحمـــام : «وجهك يا أختى زى الورد النهـاردە» فطبعت قبـله على جبهتهـا السـمراء العريضة، بعد الحمام تناولنا ـ جميعا ـ إفطارا عائليا بهيجا لم يقطعه جرس الباب الذى دق مبكرا يعلن قدوم «هانى» يستـأذن فى مرح فى أن ينضم إلى الاحتفال العائلى، لم يغير قدومه من الأمر شيئا، كان وجهه مرتاحا هو الأخر، زال ـ إلى حد كبير ـ ما يشعر به من توتر، وما يبعثه وجوده ـ معنا ـ من تصنع متبادل، تحولت الشقة المفروشة السخيفة إلى مكان أكثر إنسانية، لا أدرى هل يرجع هذا إلى الأوراق الطفليـة الملونة والتعـاليق والبالونات، أم إلى تلك الحرارة الإنسانيـة التى بعثـها فى المكان هؤلاء «الغجـر السعداء»، وكأننى كنت أشاهد لوحة ملونة لفنان يعـرف مـعـانى الألوان والخطوط لكل واحـد مشروع وخطة لليوم، ولهم ـ ما عدا نجية وأنا ـ طلبات ورغبات، وعدتهم بأن أنفذها جميعا، لأننى أعرف أن فى

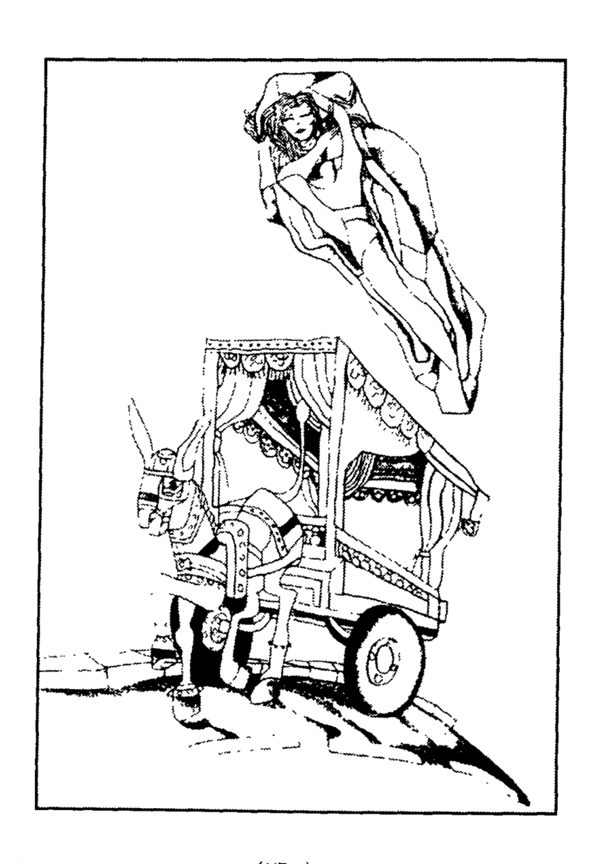
اليوم فى النهاية أربعا وعشرين ساعة فقط، ولكن يبدو أنه

كان يوما أطول من المعتاد.





وأنــــــا راقدة فى فراشى أقرأ بعد يوم طويل شاق، دخلت «نجية» ملتاعة لتقول إن «تامر» سخن، وأنه يهذى ، وجسده كله ينتفض، بعد لحظات كان الولد يفرغ ما فى جوفه، ويتصبب عرقا باردا، وارتبكت خطواتنا، وتصادمنا، استدعت «لمياء» «هانى» الذى «لف» تامر فى بطانية، وسرنا جميعا إلى المستشفى القريب، هناك تأكدت أن الولد سيضيع، وأننى أقع فى يد عدد من الأطباء الصغار،



الهواة، نصف نائمين.. يتضاربون فى الأقوال ولا يقدمون ولا يؤخرون أخذت «تامر» منهم، ولم أعد أدرى كيف يمكن أن أطير ، أضمه إلى صدرى وأنا أشعر به كتلة من نار حارقة تكوى فؤادى، فى عناد مجنون قررت أن أركب أول أتوبيس إلى القاهرة، لم أسمع لأحد، ولم أستشر أحدا، حاول «هانى» كل شىء: أن نعود إلى المستشفى ونطلب طبيبا كبيرا، أن نبحث عن مستشفى آخر. وأن ننتظر طائرة آخر النهار.. أن.. وأن.. لكننى مندفعة أحمله، لا أشعر له بثقل وأدفعهم جميعا إلى محطة الأتوبيس.. حصلنا على أربعة مقاعد بصعوبة، وهانى يكرر: السفر خطر على الولد ، يا مجنونة خطر، كلمة خطر دفعتنى إلى البكاء، لم أسمع ما قاله هانى بعد ذلك من أنه سيلحق بنا، وأنه.. وأنه.. أصلحت نجية من وضع رأس تامر على فخذى، وراحت تغرق جبهته بثلج وماء بارد لا أدرى من أين أتت به، هل أغفيت؟ أم أننى

كنت حقا أطير، نام هو، أم أن الحمى هدأت لتهاجمه من جديد، كل ما كنته هباء، ولا وجود إلا لهذا الجسد الساخن المضغوط معى فى مقعد الأتوبيس الضيق، صحراء طويلة، وعدم، أخذت أحدق فى وجهه، أراقب عينيه وتنفسه، عاودنى البكاء الحارق عندما انحشر الأتوبيس وهو يدخل إلى القاهرة وسط مرور شارع الهرم الكثيف.....





تعليق نهائى لابد منه

أنا الدكتورة سناء فرج، وهذه بعض من أوراقى الشخصية فعلا، لا أعرف كيف وصلت ليد من نشرها، ولا لماذا رتبها هذا الترتيب، هى بعض أوراق تروى جانبا تافها من جوانب حياتى المملة، بعضها له «معنى» والبعض الآخر «مجرد رغى».



المهم أننى عثرت على ورقة
صغيرة أخرى لا أدرى كيف لم يلتفت
إليها ناشر هذه الأوراق أمامكم، ورقة
صغيرة مكتوبة بخطى الذى «يشبه نكش
الفراخ» مكتوب فيها : ثلاث مرات :
«اصنع لنفسك فُلكا من خشب فها أنا
آتى .. وبعدى الطوفان» .





لقد أدركنا منذ البداية
أن تكوين ثقافة المجتمع
تبدأ بتأصيل عادة
القراءة، وحب المعرفة، وأن
المعرفة وسيلتها الأساسية
هى الكتاب، وأن الحق في
القراءة يماثل تماماً الحق
فى التعليم والحق فى
الصحة.. بل الحق فى
الحياة نفسها.

سوزان مبارك

الثمن ٢ جنيه

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب